المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

إبداعات عالمية

356



# رواية «الشباب»

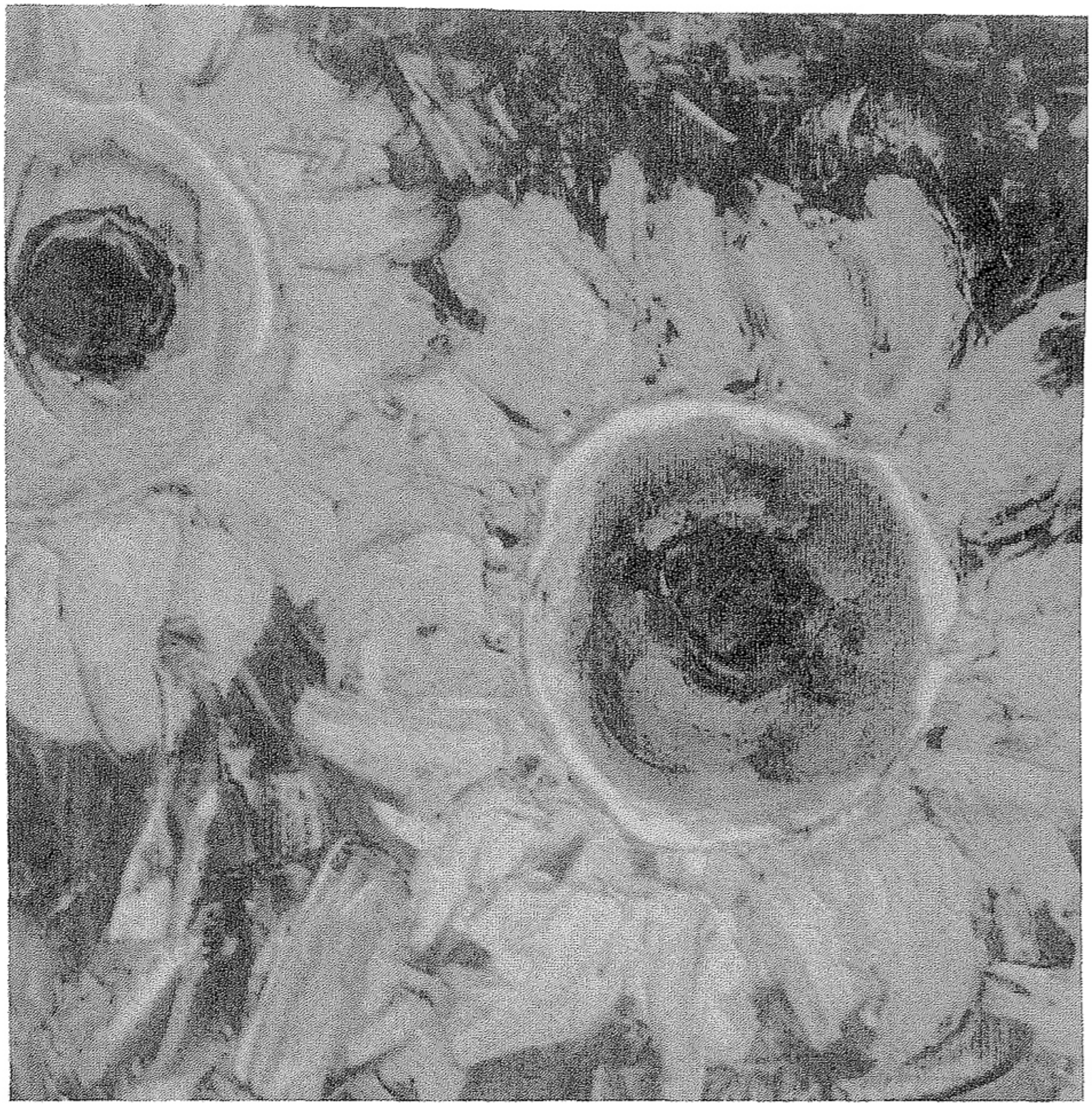
تأليف: ج.م. كويتزي

ترجمة: د. شعبان عبدالعزيز عفيفي

مراجعة وتقديم: د. سليمان خالد الرباح

تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

أكتوبر 2005



الفنان : قاسم الياقوت

ورود - ١٩٩٨

٣٣ × ٤٢ سم

شمس)


إهـــــــداء2005

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

دولة الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

# رواية

# «الشباب»

تأليف: ج.م. كويتزي

ترجمة: د. شعبان عبدالعزيز عفيفي

مراجعة وتقديم: د. سليمان خالد الرياح

العدد 356 أكتوبر 2005

# إبداعات عالمية

تصدر كل شهرين عن
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب





www.kuwaitculture.org
E Mail:
ebdaat_alamia@yahoo.com


## سعر النسخة

| | |
|---|---|
| الكويت ودول الخليج | 500 فلس |
| الدول العربية الأخرى | ما يعادل دولارا أمريكيا |
| خارج الوطن العربي | دولاران أمريكيان |

## الاشتراكات

### دولة الكويت

| | |
|---|---|
| للأفراد | 10 د.ك |
| للمؤسسات | 20 د.ك |

### دول الخليج

| | |
|---|---|
| للأفراد | 12 د.ك |
| للمؤسسات | 24 د.ك |

### الدول العربية الأخرى

| | |
|---|---|
| للأفراد | 25 دولارا امريكيا |
| للمؤسسات | 50 دولارا امريكيا |

### خارج الوطن العربي

| | |
|---|---|
| للأفراد | 50 دولارا أمريكيا |
| للمؤسسات | 100 دولار امريكي |

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص. ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي 13147
دولة الكويت


ردمك: ٠ - ١٧٢ - ٠ - ٩٩٩٠٦
رقم الإيداع: ٢٠.../٢٠٠٥

# رواية «الشباب»

العنوان الأصلي :

**Youth**

**Written By: J. M. Coetzee**

عن دار النشر

**Vintage**

Random House, 20 Vauxxhall Bridge Road,
London SW1V 2SA

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، 2005م

إبداعات عالمية - العدد 356

صدر العدد الأول في أكتوبر ١٩٦٩م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(١٩٢٣ - ١٩٩٠)

## مقدمة المراجع

يعد جون كويتزي، واحدا من أبرز أعلام الأدب العالمي المعاصر، حيث نال عدة جوائز مرموقة عن رواياته وأعماله الأدبية باللغة الإنجليزية، توَّجها في عام ٢٠٠٣، بحصوله على شهادة نوبل العالمية في الأدب.

وفي روايته «الشباب» الصادرة عام ٢٠٠٣، يستعرض كويتزي سيرة حياته في مرحلة الشباب، وكيف عانى الأمرين في سبيل أن يجد هويته ككاتب روائي متميز، على الرغم من نشأته الصعبة في مجتمع جنوب أفريقيا القائم على مبدأ التمييز العنصري في فترة الستينيات، وتحكي الرواية قصة صراعه الداخلي كواحد من الأقلية البيضاء، وقراره الهروب من هذا المجتمع القائم على الاستعمار الاستيطاني الجائر، والهجرة إلى منابع الأدب الإنجليزي - في العاصمة البريطانية - ليستقر بها ويعمل وينمي قدرته على الكتابة الإبداعية، حيث اعتبرها وسطا ملائما لتنمية موهبته وتحديد هويته الأدبية. وتغطي رواية «الشباب» فترة السنوات الخمس من عمر ١٩ إلى ٢٤ سنة، من حياة الكاتب، وتشكل الجزء الثاني من سيرة جون كويتزي الذاتية، بعد كتابته للجزء الأول عام ١٩٩٧، ويتعرض فيه لمرحلة الطفولة.

ومن السمات المميزة لرواية «الشباب» أن جون كويتزي اتبع أسلوبا مبتكرا في تناوله شخصية «جون» بطل الرواية، فهو لم يستعمل الأسلوب الاعترافي المباشر، ولم يبالغ في تصوير شخصيته كشاب، ولكنه اتخذ زاوية رؤية محايدة ومتجردة، مكنته من معاملة بطله الشاب بموضوعية وواقعية، وصلت إلى حد النقد الذاتي الصريح لعيوب شخصيته المتعددة، التي وقفت عائقا أمام استكمال شخصيته، وأخرت نضجه الفني المرتقب، وبالإضافة إلى أن تأثير هذا المنحى الواقعي في طرح شخصية جون الشاب قد يساعد على تعاطف القراء مع هذه الشخصية، وهي في طور الترقي والنمو عن طريق المحاولة والخطأ،مما يعكس حال الغالبية العظمى من جمهور القراء المعاصرين، فإن جون كويتزي يطرح شخصيته كشاب عادي غير واثق بنفسه وموهبته. ورسالة كويتزي إلى القراء هي أنه من أجل الوصول إلى القمة وتحقيق الذات، فلا بد لنا من المعاناة ومواجهة الفشل أحيانا للوصول إلى النضج العاطفي والفني معا.

ففي الصفحات الأولى من الرواية، نجد «جون» الشاب في الحضيض، وهو يعاني فشله المحتمل في أن يصبح كاتبا مرموقا، فيقول: «إن الفشل صعب على الناس العاديين، فالفشل بالنسبة إليهم هو كالحمى التي تنذر بالموت، ويجب التخلص منها في أسرع وقت، ما عدا الكتاب والشعراء، فلا بد

لهم من التعايش مع هذه الحمى والشعور الدائم بأنهم قاب قوسين أو أدنى من الفشل، ولكن هذه الحمى هي بالضبط ما يجعل منهم كتابا مرموقين، فلا بد من إبقاء هذه الحمى مشتعلة وعلى قيد الحياة دائما».

وعلى الرغم من هذا التفكير المتأمل لخوف جون الشاب من الفشل الذريع في الكتابة، فإن الكتاب يصوره على أنه يفشل في العثور على هذه الحمى والشعلة المتوقدة في داخله، حتى بعد الانتقال للعيش في لندن، ومحاولته تقليد مسلك جيل من سبقوه من الكتاب الأعلام، وهو ما كان حلمه طوال عمره، وهكذا يبدأ كويتزي بوصف «جون» الشاب، وهو يصارع إمكان فشله المحتمل في أن يصبح كاتبا يشار إليه بالبنان.

ولأن الرواية برمتها تعد استعراضا لما يلاقيه جون الشاب من مصاعب جمة في مرحلة الشباب، فإنه يبدأ في تشكيل ملامح شخصيته المترددة منذ المشهد الافتتاحي لسيرته الذاتية، فهو يستعرض ملامح الضعف في شخصية جون الشاب الذي ترك منزل العائلة بعد بلوغه الثامنة عشرة، وهو يعمل حاليا في عدة وظائف بسيطة، بينما يواصل دراسته الجامعية في الرياضيات، واللغة الإنجليزية - كتخصص مساند - ويتضح للقارئ من خلال الحوار الداخلي لشخصية جون خوفه الشديد من انفصاله عن جو الأسرة. ففي البداية

يبرر جون اتخاذه لهذا القرار «بأنه يحاول أن يثبت شيئا ...، وهو أن كل رجل جزيرة»، ولكن بعد ذلك بقليل يعترف بضعفه الطفولي: «ما زال ينقصه شيء أساسي... فما زال شيء من الطفل في داخله». ثم يتساءل: «متى يتوقف عن الشعور بأنه طفل كبير؟ وماذا سيشفيه من الطفولة ويجعل منه رجلا؟». ومن قراءة هذه الافتتاحية يتضح للقارئ أن جون الشاب شخص مضطرب، ومتقلب، ومتناقض مع نفسه، فهو يأمل أن يكون رجلا، ولكنه لم يصل إلى مرحلة الرجولة بعد. وطوال الرواية، فإن هذا الإحساس بالحرمان من الدفء العائلي وفقدان الأمان في مواجهة العالم يشكلان مصدر قلق وخوف دائم في حياة جون الشاب. كما يكتشف القارئ من خلال حوار جون مع نفسه أنه درج على تزيين الواقع المر الذي يعيشه، كمحاولة للهروب من الألم الشخصي ومواجهة النفس الصريحة، مما يضفي عليه شيئا من عدم الواقعية، وحتى التلاعب بالحقائق لتبرير واقع الحال.

ومن خلال نزعة التناقض في شخصيته، يتضح لنا أن جون اتخذ من الكذب على نفسه وسيلة لتبرير قراراته، وتعد هذه بلا شك أبرز مظاهر الضعف في شخصية جون الشاب، ويستعرض جون كويتزي ببراعة كيف أدى هذا العيب الشخصي إلى لجوء جون الشاب إلى استعمال الكذب، وعدم الواقعية ليس مع نفسه فقط، بل مع

الآخرين حوله، وذلك لتحقيق مآربه الشخصية؛ فعلى سبيل المثال، نكتشف، منذ الصفحة الأولى، أن جون استعمل الكذب في سبيل تأجير شقته الصغيرة التي يعيش فيها، فعلى الرغم من كونه طالبا جامعيا يعمل في عدة وظائف بسيطة، فإنه يقدم نفسه لمالك العقار على أنه «مساعد أمين مكتبة الجامعة»، وذلك لإعطاء الانطباع الكاذب بأنه شخص محترم، وناضج، ويمكن الاعتماد عليه، ويتكرر هذا السلوك الذي ينم عن ضعف شخصيته في المشاهد اللاحقة للرواية. فهو يكرر تزييف شخصيته وغشه للحصول على العمل في بريطانيا، حتى عندما لا تستدعي الحاجة ذلك، فهو يستعمل الكذب ليعطي نفسه شعورا بالعظمة عند الآخرين. وسلسلة الأكاذيب هذه تكشف لنا عدم ثقة جون في شخصيته إلى درجة لجوئه إلى الاعتماد على قناع زائف مع الآخرين ومع نفسه، وذلك لإظهار شخصيته بصورة قد تكون غير صادقة، لكنها مقبولة اجتماعيا ونفسيا.

وتشكل نزعة الهروب عند جون الشاب ثاني مظاهر الضعف في شخصيته، فهو يهرب من جنوب أفريقيا كما هرب من والديه قبلها، حتى بعد وصوله إلى إنجلترا، فإن عدم صدقه مع نفسه يجهض محاولاته المتعددة في أن يصبح كاتبا، كما أن قلقه الشديد من الفشل ينصب له سورا من البرود

الاجتماعي، وتبلد الإحساس تجاه الرجال والنساء الذين يصادفهم في لندن.

فهو، كمهاجر إلى إنجلترا، شد الرحال من جنوب أفريقيا قاصدا إشباع نزعته الثقافية من خلال وجوده في لندن عاصمة الثقافة والأدب الإنجليزي الصميم، ودائما ما توقع أن هذه التجربة ستفجر طاقاته الإبداعية، وتساعد على نضجه ككاتب، لكنه عندما ذهب فعلا إلى هناك، وبعد مواجهته لواقع الحياة اليومية في لندن، ورتابة العيش والكفاح للحصول على الإيجار الشهري لشقته المتواضعة، فإنه يتخيل أن سكان لندن الأصليين ينظرون إليه كجنوب أفريقي تعيس هارب من أتون التمييز العنصري، جاء للبحث عن هوية أوروبية، ومن هنا نرى أن الكاتب جون كويتزي وضع عدة عراقيل أمام جون الشاب يتعين عليه تخطيها، وذلك في سبيل الوصول إلى النضج الفني اللازم لأن يصبح كاتبا صادقا مع نفسه ومع قرائه، فبالإضافة إلى الحاجة للتغلب على قلق الطفولة الذي لازمه منذ خروجه من منزل العائلة، فإنه يتعين على جون إعادة تقديم نفسه بصورة تختلف عن غيره من مواطني جنوب أفريقيا. وهذا الاستقلال الثقافي ينطوي على العودة إلى منابع الثقافة البريطانية، التي يجدها في كل مكان حوله في لندن. فنجده دائم الزيارة لمكتبة المتحف

البريطاني للاطلاع على أمهات الكتب التراثية، كما يتردد على دار للسينما تدعى Every man.

ويمكننا تفسير نزعة جون المتكررة للهروب بأنها استجابة لمشاعر القلق وعدم الثقة التي تتسم بها شخصيته كشاب. ومن هذا المنظور، فإن هروبه من جنوب أفريقيا مسقط رأسه يتساوى مع هروبه من والديه؛ فنتيجة شعوره الشديد بالخجل من ممارسات التمييز العنصري السائدة آنذاك، فقد تعمد قطع صلته بتاريخ وطنه الأم وصراعه؛ ليستعيض عنه بوطنه الثقافي إنجلترا.

ولكن المفارقة تكمن في أنه كان يستطيع من - واقع خبرته كشاب ترعرع في جنوب أفريقيا - أن ينقل إلى العالم نظرته كشاب أبيض، وعدم موافقته على الممارسات البغيضة للحكومة الجنوب أفريقية، التي أصبحت محل انتقاد العالم الحر، إلى أن وصلت إلى درجة المقاطعة الاقتصادية من غالبية دول العالم في حقبتي الستينيات والسبعينيات، وكان يمكن لجون أن يكون ممثلا لخبرات جيله من الشباب الذين لم يرضوا أن يلطخهم عار الخجل من ممارسات حكومتهم الاستعمارية. ففي بداية الكتاب يقول جون: إنه كأوروبي لا يدعي أي حق مشروع في أرض جنوب أفريقيا. فهو وصديقه بول «هما على هذه الأرض تحت أوهى الذرائع، وبأن شعور الأفارقة السود تجاهه يتسم بخليط من حب الاستطلاع

والشفقة، والشعور العام بأنه كيف يتسنى لهذا الساذج الأبيض حتى مجرد التخيل أنه يستطيع أن يسيطر عليهم بحاد النظرات أحيانا، وبالتعامل الودي أحيانا أخرى، بينما تتضرج الأرض التي يقف عليها بدماء ضحايا العنصرية؟ فالنوايا الحسنة لا تكفي وحدها لحكم هذا البلد الذي عانى الأمرين من الممارسات الوحشية لحكومة التمييز العنصري في حقبة الستينيات».

ولكن جون، من شدة خجله من خلفيته الجنوب أفريقية، يحاول التعلق بالتقاليد الأدبية الأوروبية، وذلك لكي يلمع ككاتب مبدع من كتاب اللغة الإنجليزية، وفي هذا المجال يعتقد خاطئا أن كل ما عليه عمله هو قراءة كتب المشاهير من الأدباء، ومحاولة تقليد أسلوبهم في الكتابة. ولكنه في حقيقة الأمر يواجه صراعا ثقافيا يتمثل في عدم قدرته على التعامل مع أفراد المجتمع الإنجليزي، وعدم فهمهم في كثير من الأحيان؛ ولذلك فهو يجنح إلى التفكير النمطي عندما يفكر في الرجل الإنجليزي العادي. فهو يقول: «إنهم لا يتحدثون أولا يحبون التطرق إلى الحديث عن أمورهم الخاصة أو رغباتهم وطموحاتهم الشخصية، فهم متكتمون بطبيعتهم، ولا يتطرقون إلى أمورهم الذاتية أو عائلاتهم أو نشأتهم، كما لا يحبون الحديث في السياسة أو الدين، أو حتى الفن عموما». وبينما يمكننا اعتبار أن هذه الصفات في

الشخصية البريطانية قد نتجت عن ثقافة محافظة، أو عن تعقيدات الحياة في مجتمع صناعي يغلب عليه التنافس وضيق الوقت، فإنها تسهم في ابتعاد جون وشعوره بالغربة وعدم قدرته على التعبير التلقائي عن مشاعره، فهو يقول عن نفسه: إنه «شخص بارد العواطف وبطيء الاستجابة لما حوله، وميال إلى الروح الانهزامية في كل ما يسعى إلى تحقيقه على الصعيدين الشخصي والعملي».

إن اكتشاف جون للهوة الثقافية والاجتماعية بينه وبين المجتمع البريطاني ساعدت على عدم شعوره بالأمان، والغربة عن كل ما حوله، ولهذا درج الشاب على توهم ما يجب أن تكون عليه حياة الفنان التي يحب أن يعيشها، فهو يقول إن «الفنان يجب أن يمر بجميع التجارب الشخصية من قمة الشرف إلى درك الوضاعة». وإن الذين يعايشون الفنانين باستطاعتهم «رؤية التوهج الخفي الدال على موهبتهم الفنية»، لكن هذه التعميمات الخاطئة تساعده على مواجهة فشله في أن يكون كاتبا مبدعا باستطاعته أن يقدم أعمالا فنية تثري حياة الأجيال المتعاقبة من قراء الإنجليزية. وهكذا نجد أن تجارب جون الشاب في إنجلترا لا تفيد في صقل موهبته كثيرا، حيث لا يستطيع التخلص من عدم ثقته بنفسه، ولا يستطيع بلوغ مرحلة النضج الشخصي، فهو غارق في الأحلام والأوهام في دوامة لا يبدو أنه يستطيع الخروج منها مهما حاول.

ولكن قرب نهاية هذه المرحلة الصعبة من نشأته كشاب، يبزغ بصيص أمل يساعده على تجنب حظه العاثر في عدم قدرته على تحقيق ذاته الأدبية. فهو يروي أن السبب المباشر لتركه عمله في شركة الحاسوب العملاقة «IBM» هو عدم قدرته على تحقيق صداقات مع زملائه في العمل. ثم ينتقل إلى عمله الجديد كباحث لتطوير مشروع شركة «أطلس» البريطاني لأبحاث الأسلحة النووية. وهناك يلتقي «جنابي»، وهو فتى مهاجر من الهند قدم إلى بريطانيا للعمل مهندس حاسوب في الشركة نفسها، وهو يجد كثيرا من القواسم المشتركة التي تجمعه مع جنابي. فعندما يزوره في شقته يجده في حالة يرثى لها، وقد تجمعت قشور الموز تحت سريره، ولا يستطيع ترتيب بيته، ويكشف له جنابي أن إهماله الشخصي ناتج عن حزنه الشديد لفراق أمه. فهما في العمر نفسه تقريبا، وكل منهما منغلق على نفسه، وغارق في همومه الشخصية، كأنه مركز الكون. بينما لا يعير مشاعر الآخرين أدنى اهتمام، ولكن كلا منهما حاول تحقيق حلمه بالمجيء إلى بريطانيا والعمل فيها، على رغم اختلاف الثقافات والشعور بالعزلة عن المجتمع، وتشكل هذه المواجهة أولى علامات النضج الشخصي في شخصية جون الشاب، حيث رأى جون كويتزي أن مقدرة الشاب على الإحساس بغيره

من البشر، ومشاركته الوجدانية مع «جنابي» هما علامة على مقدرة جون على التطور خارج إطار نفسه، وانشغاله بمشاكله الصغيرة إلى الاهتمام بشخص آخر. وربما كانت هذه بداية الخروج من الذات والانصهار في هموم وتطلعات غيره من البشر، وهذه من غير شك علامة مميزة من علامات النضج الفني والشخصي معا، اللذين سيلازمان جون كويتزي الكاتب في طريقه إلى النجاح الأدبي الباهر، الذي حققه في مرحلة لاحقة من عمره كرجل.

د. سليمان خالد الرياح

# الفصل الأول

يعيش «جون» في شقة صغيرة عبارة عن غرفة واحدة بمنافعها، تقع بالقرب من محطة سكة حديد «موبراي»، ويدفع عنها إيجارا شهريا قدره أحد عشر جنيها إنجليزيا (guinea)(*). وفي آخر أيام العمل من كل شهر يركب القطار إلى داخل المدينة ويتوجه إلى شارع «لوب»، حيث يوجد مكتب شركة الأخوين أ، ب. ليفي للوكالة العقارية، وهو مكتب صغير تعلوه واجهة نحاسية. ويسلم جون ظرفا به الإيجار لأصغر الأخوين السيد ب. ليفي، الذي يقوم بتفريغ المبلغ فوق المكتب غير المرتب، ويقوم بعدِّه، ويكتب إيصالا بالمبلغ ووجهه يتصبب عرقا؛ تعبيرا عن الضيق والاشمئزاز، ويعطيه إلى جون قائلا في زهو: «تفضل أيها الشاب العزيز».

وهو يحاول بشتى الطرق ألا يتأخر في دفع الإيجار؛ لأنه استأجر الشقة بادعاءات كاذبة، فعندما وقع العقد ودفع التأمين لم يذكر أن وظيفته «طالب»، بل مساعد أمين مكتبة الجامعة، التي جعل عنوانه عليها.

والواقع أن ما قاله ليس كله كذبا، فمن يوم الاثنين إلى الجمعة يعمل في قاعة المطالعة بالمكتبة خلال ساعات المساء، وهو عمل لا يفضل أمناء المكتبة، ومعظمهم من النساء، القيام به؛ لأن الحرم الجامعي الموجود على جانب التل يكون مقفرا وموحشا ليلا. حتى

---

(*) عملة قديمة كانت تساوي ٢١ شلنا (المترجم).

أنه يتملكه الخوف عندما يقوم بإغلاق الباب الخلفي ويتحسس طريقه في ظلام دامس، في الممر المؤدي إلى مفتاح الكهرباء الرئيسي - إذ من السهل جدا على أي مجرم الاختباء بين أرفف المكتبة عندما يغادرها العاملون في الساعة الخامسة مساء - ثم يفتش في المكاتب الخالية عن أي شيء يستولي عليه ويتربص له (أي لـ جون) في الظلام لانتزاع المفاتيح من يده.

ولا يتردد على المكتبة في الفترة المسائية إلا عدد قليل من الطلبة، بل إن بعضهم لا يعرف أنها مفتوحة أصلا، ولذلك فهو يكاد لا يفعل شيئا طوال تلك الفترة، بل إن المبلغ الذي يحصل عليه، وهو عشرة شلنات في الليلة، يعتبر الحصول عليه مسألة سهلة.

وأحيانا يتخيل فتاة جميلة ترتدي ثوبا أبيض وتتجول في غرفة المطالعة وتتسكع بعد انتهاء ساعات الدوام، ويتخيل أنه يطلعها على أسرار غرفة التجليد والكتالوجات، ثم يخرجان معا في ليلة تسطع فيها النجوم، ولكن هذا لا يحدث بالمرة.

وعمله في المكتبة ليس هو عمله الوحيد، ففي مساء الأربعاء من كل أسبوع يساعد طلبة السنة الأولى بقسم الرياضيات بالجامعة في مجموعات دراسية (يتقاضى من ذلك ثلاثة جنيهات أسبوعيا)، وفي أيام الجمع يقوم بشرح بعض مسرحيات شكسبير الكوميدية لطلبة دبلوم الدراما (مقابل جنيهين وعشرة شلنات)، وفي ساعات متأخرة من بعد الظهر يقوم بتدريب الطلبة للنجاح في امتحانات القبول بالجامعة في مدرسة أنشئت خصيصا لذلك في «رودنبوش» (مقابل ثلاثة شلنات في الساعة)، كما يعمل خلال

الإجازات في البلدية (قسم الإسكان العام) في استخلاص بيانات إحصائية من البحوث التي تجرى عن الأسر. وعندما يجمع هذه المبالغ كلها يجد نفسه في وضع مريح، يساعده على دفع الإيجار ومصروفات الجامعة وتلبية مطالب الجسم والروح معا، بل يدخر مبلغا صغيرا، وعلى رغم أن عمره لا يتجاوز التاسعة عشرة، فإنه يعتمد على نفسه وليس عالة على أحد.

وهو يلبي احتياجات جسمه من منطلق الفطرة البسيطة، فكل يوم أحد يقوم بسلق عظم كثير النخاع (مواسير) مع الفاصوليا والكرفس؛ ليعد طبقا كبيرا من الحساء يكفيه لمدة أسبوع. وفي أيام الجمع يذهب إلى سوق «سولت ريفر» لشراء صندوق من التفاح أو الجوافة أو أي نوع آخر يتوافر حسب الموسم. وكل صباح يمر موزع الحليب ويترك له عبوة من الحليب أمام الباب، وعندما يتوافر لديه فائض من الحليب يضعه في جراب نايلون قديم ويعلقه فوق حوض غسيل الوجه؛ ليُصفى ماؤه ويتحول إلى جبن. ولكي يكتمل طعامه فإنه يشتري خبزا من المحل الكائن على ناصية الشارع. وهذا نظام غذائي يرضى عنه «روسو»، أو «أفلاطون»، أما بالنسبة للملابس فلديه جاكيت وبنطلون، لا بأس بهما، يرتديهما عند ذهابه للمحاضرات، وفي غير ذلك يجعل الملابس القديمة تعمر طويلا عنده.

وهو يثبت شيئا: وهو أن كل رجل عبارة عن جزيرة منعزلة، لا يحتاج إلى والدين.

وفي بعض الأمسيات يمشي متثاقلا على امتداد الطريق الرئيسي مرتديا معطفا للمطر وشورتا وصندلا، والمطر يبلل شعره

فيجعله مستويا، وأضواء السيارات المارة تنعكس على وجهه، وهو يشعر في قرارة نفسه بأن منظره غريب، ولكن ليس شاذا (إذ هناك فرق بين الاثنين).

وهو يعض على أسنانه تعبيرا عن الغم والكدر، ثم يسرع الخطى. وهو ضئيل الجسم وأطرافه مرتخية ومتدلية. وهو يريد أن يبدو جذابا، لكنه متأكد أنه ليس كذلك، إذ إنه يفتقر إلى شيء أساسي وهو عدم وجود ملامح محددة لشكله، وما زال يشعر بالطفولة بداخله، ويتساءل: إلى متى سيظل طفلا، وما الذي سيخلصه من ذلك ويحوله إلى رجل؟

الجواب عن السؤال الأخير هو أن الحب - إن وجد - هو العلاج لذلك، فالمحبوب سيرى على الفور النار التي تستعر بداخله مخترقا مظهره الخارجي الغريب. كما أن كونه غريب المنظر وغير جذاب يعد جزءا من عذاب يجب أن يمر فيه لكي يخرج منه يوما ما إلى النور: نور الحب ونور العين، إذ رسم لنفسه منذ مدة طويلة أن يكون فنانا، ولكن إذا كان لا مفر في الوقت الراهن من أن يكون مغمورا ومثار سخرية، فمرد ذلك إلى أن قدر الفنان أن يتحمل ذلك إلى أن يأتي اليوم الذي تظهر فيه قواه الحقيقية، وتخرس فيه ألسنة المستهزئين والساخرين.

وثمن الصندل الذي يلبسه شلنان وستة بنسات، وهو مصنوع من المطاط في مكان ما في أفريقيا، ربما «نياسا لاند». وعندما يبتل الصندل من المطر تنزلق قدماه منه. وفي «كيب تاون»، يستمر المطر في الشتاء لمدة اسابيع دون توقف. وعندما يسير في الشارع الرئيسي، في أثناء المطر، يتوقف أحيانا لالتقاط الصندل الذي

ينزلق من قدمه. وفي تلك اللحظات يشاهد علية القوم من فئة «البوير» في «كيب تاون»، وهم يضحكون في قرارة أنفسهم، وهم يمرون أمامه بسياراتهم الفاخرة. ويقول لنفسه: اضحك! فسرعان ما سوف أغادر هذا المكان.

وأعز صديق له اسمه «بول» وهو يدرس الرياضيات مثله، وهو طويل وأسمر اللون، وله علاقة بامرأة تكبره سنا اسمها «إلينور لورييـر»، وهي ضئيلة الجسم وشقراء وجميلة، وتشبه الطيور في مظهرها ورقتها وصوتها. ويشكو بول لصديقه من تقلباتها المزاجية، وعلى رغم ذلك فإن جون يحسده ويتمنى أن تكون له صديقة جميلة تدخن السجائر من خلال مبسم وتتحدث الفرنسية، وذلك كفيل بأن يحوله إلى شخص آخر بل وبملامح مختلفة.

وقد ولدت «إلينور» وشقيقتها التوأم في إنجلترا، وسافرتا الى جنوب أفريقيا في سن الخامسة عشرة، بعد انتهاء الحرب، ويقول بول نقلا عن «إلينور» إن أمهما كانت تحرض إحداهما ضد الأخرى، وتعبر عن حبها ورضاها عن إحداهما ثم تنقل ذلك إلى الفتاة الأخرى، مما يصيبهما بالحيرة ويجعلهما يعتمدان عليها، وإلينور هي الأقوى، وقد حافظت على سلامتها العقلية، وان كانت تبكي وهي نائمة، وتحتفظ بدمية صغيرة بجوار السرير. أما أختها فكانت مصابة بلوثة عقلية لبعض الوقت، وكانت تحبس في إحدى الغرف. وهي لا تزال تتلقى العلاج، ولا يزال شبح المرأة العجوز المتوفاة يطاردها.

وتعمل إلينور مدرسة في إحدى مدارس اللغات في المدينة،

ومنذ أن تعرفت على بول وهو يصاحبها في التقائها بمجموعة من الفنانين والمثقفين الذين يعيشون في منطقة «الحدائق»، والذين يرتدون بلوفرات سوداء وبنطلونات جينز وصنادل، ويحتسون نبيذا أحمر رخيصا، ويدخنون سجائر «جولواز»، ويرددون عبارات من «كامو» و«جارسيا لوركا»، ويستمعون إلى موسيقى جاز حديثة، ويعزف أحدهم على الجيتار الإسباني، ويمكن إقناعه بعزف قطعة تقليدا cante hondo. ونظرا لأنهم لا يعملون في وظائف حقيقية بمعنى الكلمة؛ فإنهم يسهرون الليالي ويناموون حتى الظهيرة، وهم يكرهون القوميين Nationalists ذوي التوجهات، إلا أنهم ليسوا مهتمين بالشؤون السياسية، ويقولون إنه لو توافر لهم المال لخرجوا من جنوب أفريقيا المتخلفة، التي تعيش في الجهل والظلام، ولانتقلوا للعيش على الدوام في مونتمارتر أوجزر Belearic.

وذات يوم يطلب «بول» و«إلينور» من جون أن يحضر معهما أحد اللقاءات التي تجمعهما بالآخرين، وذلك في كوخ صغير من طابق واحد يقع على شاطئ كليفتون، وكان من بين الموجودين شقيقة إلينور غير المستقرة عقليا، التي سبق أن سمع عنها، والتي عرف من بول أنها على علاقة مع صاحب الكوخ، وهو رجل وجهه متورد، شديد الاحمرار - ويكتب في جريدة «كيب تايمز».

واسم هذه الأخت جاكلين، وهي أطول من «إلينور»، وليست رقيقة الملامح مثلها، ولكنها جميلة رغم ذلك. وهي مليئة بالطاقة العصبية وتدخن بشراهة، وعندما تتحدث تعبر بالحركة والإشارة. ويجد جون راحة في الحديث معها، لأن لسانها ليس لاذعا مثل

«إلينور»، فهو يتضايق من أصحاب الألسنة اللاذعة، لأنه يظن أنهم يتندرون عليه، ويتبادلون النكات عنه من وراء ظهره وفي غيابه.

وجاكلين في الثلاثين من عمرها، وهي امرأة جذابة تعمل ممرضة، ولكنها تقول إنها ليست ممرضة عادية، فقد تدربت في مستشفى «جاي» بلندن على أعمال توليد النساء، وهي لا تعمل في مستشفى «جروت شور» العام بل في دار للمسنين. وهي تعيش في سكن الممرضات، وبين الحين والآخر تنتظر «جون» على باب السكن ثم يخرجان للنزهة معا. وتستمر هذه العلاقة العاطفية لبعض الوقت، إلى أن تشعر بأنه لم يعد يهتم بها فتتوقف عن لقائه، وتنتهي العلاقة عند هذا الحد.

ويرى «جون» أن الرومانسية جزء من حياة الفنان، لأن الفن لا يتغذى على الحرمان والوحدة والشوق والحنين، فـ بيكاسو، الفنان العظيم، بل ربما أعظم فنان على الإطلاق، مثال حي على ذلك؛ فقد وقع في غرام عدة نساء، واحدة تلو الأخرى، وقد ألهمته هذه العلاقات العاطفية رسم لوحات فنية رائعة. ولكن ماذا عن «جون»؟ هل يضمن أن تلهمه الفتيات اللائي يقيم علاقات عاطفية معهن - وليس جاكلين فقط، بل كل النساء في خياله - أعمالا فنية أيضا؟ هو يريد أن يصدق ذلك، ولكنه يشك فيه؛ فالزمن وحده هو الكفيل بأن يحكم على أنه أصبح فنانا عظيما أم لا، ولكن هناك شيئا مؤكدا وهو أنه ليس بيكاسو، فأحاسيسه تختلف عنه، فـ بيكاسو أكثر هدوءا وتشاؤما وتحضرا، وعيناه السوداوان لهما مفعول السحر، وإذا حاول جون تغيير شكل المرأة فلن يصورها بالقسوة التي صورها عليها بيكاسو، وجعلها تنثني وتتلوى

كما لو كانت معدنا منصهرا. وعلى أي حال فإن الكتاب يختلفون عن الرسامين؛ فهم أكثر إصرارا وتصميما ومهارة ودقة منهم.

وهل قدر النساء اللواتي يعرفن فنانين أن تظهر كل حسناتهن أو سيئاتهن على شكل أعمال فنية؟ وتخطر على باله شخصية «هيلين» في رواية «الحرب والسلام»، فهل بدأت كإحدى صديقات تولستوي؟ وهل كانت تتخيل أنها بعد أن تموت سيقع في حبها رجال لم تقع أعينهم عليها بالمرة؟

# الفصل الثاني

استيقظ جون متأخرا ذات يوم، حيث فاته حضور محاضرة الساعة الثامنة صباحا، وليست هذه المرة الأولى منذ أن دخلت جاكلين حياته، وبدأ يتأخر في دراسته، ولا يعرف كيف يلحق بزملائه، وفي خلال السنتين الأوليين لالتحاقه بالجامعة كان واحدا من أنبغ الطلبة، ولم يجد أي صعوبة في الدروس، وكان دائما يسبق المحاضر بخطوة في الدرس، ولكن غلفت ذهنه غشاوة في الفترة الأخيرة، وأصبحت دروس الرياضيات أكثر حداثة وتجريدا، ولذلك بدأ يتعثر في دراسته، وأمكنه متابعة شرح الأساتذة على السبورة خطوة خطوة، إلا أنه لم يعد يفهم خلاصة الموضوع أو المضمون العام له. وكان يصاب بنوبات من الذعر والهلع أثناء المحاضرات، وكان يبذل قصارى جهده لإخفاء ذلك.

ومن الغريب أنه كان الطالب الوحيد الحزين بسبب هذه المشكلة، في حين أن باقي الطلبة من زملائه المثابرين على الدراسة، رغم صعوبتها، لم يجدوا مشكلات غير عادية، وقد تدنت درجاته شهرا بعد شهر، في حين ظلت درجات زملائه على ما كانت عليه، وأما الطلبة النابغون - الحقيقيون - فقد سبقوه وتركوه يسير في أعقابهم.

وهذه أول مرة في حياته يجد لزاما عليه أن يستجمع أقصى طاقاته، فحتى عندما لم يكن في أحسن حالاته كان في مستوى

لا بأس به، والآن يجد نفسه في صراع من أجل البقاء، فهو إن لم يكرس نفسه كلها للدراسة، فسوف يغرق.

ولكن تمر أيام بأكملها، وهو يعاني إرهاقا شديدا، ويلعن نفسه، لأنه انغمس في علاقة كلفته الكثير، ويتساءل: إذا كانت حالته كذلك بسبب صداقته لفتاة، فكيف ينجح «بيكاسو» والآخرون في مثل هذه الصداقات؟ وهو ببساطة لا يمتلك الطاقة اللازمة للتنقل من محاضرة إلى أخرى، ومن وظيفة إلى وظيفة، وبعد أن ينتهي من ذلك يهتم بامرأة متقلبة المزاج بين الشعور بطعم السعادة، ونوبات من الاكتئاب، وتتحرك فيها بعنف وعصبية، وتطيل التفكير في الحياة بما فيها من أحقاد وضغائن.

وعلى رغم أن علاقته انتهت بجاكلين، فإنها أحيانا تلتقي به وتعاتبه على بضع كلمات سبق أن تفوّه بها، ولم تفهم معناها إلا أخيرا، وأحيانا تشعر أنها في حالة نفسية سيئة، وتريد أن تتحدث إليه للترويح عن نفسها، ولكن أسوأ يوم تلتقي به هو اليوم التالي للعلاج، إذ إنها تظل تردد المرة تلو الأخرى ما حدث في عيادة الطبيب المعالج وتبكي.

وقالت له ذات مرة، وهي تنفث دخان السيجارة: «يجب أن تتلقى العلاج أنت أيضا»، فيرد عليها قائلا: «سأفكر في ذلك»، فهو يدرك الآن أنه لم يعد هناك شيء يخجل منه.

والواقع أنه لا يفكر في الذهاب للعلاج، فالهدف من العلاج النفسي جلب السعادة للمريض، ولكن ما جدوى ذلك؟ فالسعداء ثقيلو الظل، والأفضل هو أن نتقبل عبء التعاسة، ونحاول أن نحولها إلى شيء مفيد كالشعر أو الموسيقى أو الرسم، فهذا هو ما يؤمن به.

وعندما تقابله جاكلين يحاول أن ينصت إليها في ضجر، ولكن تكرار ما تقوله من كلمات متناقضة يجعله في النهاية لا يعيرها أذنا صاغية، إذ كثيرا ما تتحدث عن ضياع نفسها الحقيقية بسبب اضطهاد أم طاغية أحيانا، وأب تخلى عن أسرته أحيانا أخرى، وطبيب نفسي قاس في بعض الأحيان، وجون لا يصدق ما تقوله.

وذات مساء، يذهب إلى شقة بول حيث يجده يتأهب للذهاب إلى بيت والدته في «سانت جيمز»، لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، واقترح عليه أن يذهب معه، ولو ليوم السبت فقط.

وكانا قيد أنملة من اللحاق بالقطار الأخير، ولكن فاتهما، فاضطرا إلى السير على الأقدام مسافة اثني عشر ميلا. وكان الجو جميلا في تلك الليلة، فما المانع من ذلك؟

ويحمل «بول» حقيبة على ظهره (جربندية)، وكذلك الكمان الخاص به، الذي يقول إنه يحمله معه لأنه من الأسهل أن يعزف عليه في «سانت جيمز»، حيث البيوت غير متلاصقة، فلن يزعج أحدا.

وقد تعلم بول العزف على الكمان منذ طفولته، إلا أنه لم يتعمق في ذلك، ويبدو أنه راض تماما بعزف الموسيقى الصاخبة نفسها التي كان يعزفها منذ عشر سنوات، وطموحاته كموسيقي تتجاوز ذلك بكثير، فهو يحتفظ في شقته بالبيانو الذي اشترته له أمه عندما كان في الخامسة عشرة من عمره، إذ بدأ يطالب بتلقي دروس في البيانو، إلا أن تلك الدروس لم تكن ناجحة، إذ لم يكن لديه من الصبر ما يجعله يتقبل طرق

التدريس البطيئة والخطوة خطوة من قبل المدرس، وعلى رغم ذلك، فهو مصمم على أن يأتي اليوم الذي يقوم فيه بعزف موسيقى بيتهوفن، عمل رقم ١١١ - ولو عزفا رديئا - ثم بعد ذلك النوتة الموسيقية التي أعدها «بوسوني»، لمعزوفة «تشاكون»، من مقام الصغير لـ باخ، وهو مصمم على تحقيق هذه الأهداف دون المرور كالمعتاد على «تشيرني»، و«موتسارت»، وبدلا من ذلك سيعزف هاتين القطعتين بمفرده ودون توقف، وذلك من خلال دراسة النوتة الموسيقية أولا وعزفهما ببطء شديد، ثم زيادة سرعة الإيقاع بعد ذلك كلما تطلب الأمر ذلك، وهذه هي طريقته الخاصة في تعلم البيانو، التي اخترعها لنفسه، وهو يرى أنه ما دام يسير على البرنامج الذي وضعه لنفسه، دون كلل أو ملل، فسوف تنجح هذه الطريقة.

إلا أنه يكتشف أنه كلما حاول التقدم في تعلم البيانو، ومع زيادة السرعة يشعر بتقلص في الرسغ وتيبس في الأصابع، بحيث لا يستطيع العزف بالمرة، ثم يصاب بحالة هيجان، ويضرب بقبضة يده على أصابع البيانو ويصاب بنوبة يأس.

ومع منتصف الليل، لم يصلا إلى أبعد من «ويتبرج»، وقد توقفت حركة السير تماما، وأصبح الشارع الرئيسي خاليا، إلا من أحد عمال نظافة الشوارع، يحمل المكنسة.

وعند وصولهما إلى منطقة «ديب ريفر»، يمر أمامهما موزع حليب يركب عربة تجرها الخيول، ويتوقفان لمشاهدته، وهو يشد لجام الحصان لإيقافه، وينزل من العربة، ويركض بخطوات سريعة

في ممر بإحدى الحدائق، ويضع على الأرض زجاجتين من الحليب، ويلتقط الزجاجات الفارغة، ويضع النقود في جيبه، ثم يعود إلى العربة.

ويقول بول لموزع الحليب: «أعطني زجاجة حليب من فضلك؟»، ويعطيه أربعة بنسات، وينظر موزع الحليب إليهما مبتسما وهما يشربان الحليب، وهو شاب صغير ووسيم وممتلئ حيوية ونشاطا، ويبدو أن الحصان الأبيض الكبير بحوافره المتسخة لا يبالي كسيده من وجوده في منتصف الليل.

ويتعجب «جون»، فجميع الأعمال التي لم يكن يدري عنها شيئا تجري والناس نيام: نظافة الشوارع وتوصيل الحليب إلى المنازل، ولكن هناك نقطة واحدة تحيره: لماذا لا يتعرض الحليب للسرقة؟ ولماذا لا يوجد لصوص يتتبعون خط سير موزع الحليب ويسرقونه؟ وفي بلاد يعتبر فيها التعدي على ممتلكات الغير جريمة، وكل شيء معرض للسرقة، فما الذي يجعل الحليب غير معرض للسرقة؟ هل السبب أن الحليب رخيص جدا؟ وهل لدى اللصوص معايير للسلوك؟ أم هل يشفق اللصوص على موزعي الحليب، ومعظمهم من صغار السن، ومن السود، ولا حول لهم ولا قوة؟

وهو يريد أن يقتنع بالتفسير الأخير، وأن الناس يشفقون على السود، وعلى قدرهم ونصيبهم، وأن لدى الناس رغبة في التعامل مع السود بشرف وكرامة لتعويضهم عن قسوة القانون، ولكنه يعلم أن الأمر ليس كذلك، فبين السود والبيض توجد فجوة كبيرة ثابتة، أعمق من الشفقة، وأعمق من التعامل بشرف وكرامة، بل وأعمق من حسن النية. يدرك الطرفان أن أشخاصا مثل بول ومثله، مع

ما لديهما من أجهزة بيانو وكمان، موجودون على هذه الأرض، أرض جنوب أفريقيا، وفقا لحجج وذرائع واهية.

وموزع الحليب هذا نفسه، الذي كان قبل عام ولدا صغيرا يرعى الماشية في أعماق «ترانسكي»، لا شك أنه يعرف ذلك، والواقع أنه يشعر من احتكاكه بالأفارقة عموما، بل حتى بالملونين، برقة وحنو غريبين ينبعان منهم: الإحساس بأنه ساذج وفي حاجة إلى الحماية، إذا تخيل أنه يستطيع أن ينجح في حياته على أساس النظرات المستقيمة والمعاملات الشريفة، عندما تكون الأرض تحت قدميه غارقة في الدماء، وصرخات الغضب تتصاعد من أعماق التاريخ، وهو يتساءل: إذا كانت هناك أسباب أخرى تجعل هذا الفتى، مع نسائم الصباح الأولى، يمسح بيديه على رأس الحصان، ويبتسم برقة وهو يشاهدهما يشربان الحليب؟

وأخيرا، يصلان إلى المنزل في «سانت جيمز» مع بزوغ الفجر، وبمجرد وصولهما يستلقيان على أريكة، ويستغرقان في نوم عميق إلى أن توقظهما أم «بول»، وتقدم لهما طعام الإفطار في شرفة تطل على منظر عام لـ «فولسي باي».

ويندمج «بول» في حديث طويل مع أمه يشارك فيه «جون» بسهولة. وأم بول مصورة فوتوغرافية، ولها استديو خاص بها، وهي هيفاء القوام وأنيقة المظهر، وصوتها أجش بسبب التدخين وتبدو متوترة، وبعد أن تناولا الإفطار استأذنت في الانصراف لانشغالها في عملها.

ويقوم «جون» و«بول» بجولة على الشاطئ، ويسبحان ثم يعودان ويلعبان الشطرنج، ثم يعود «جون» إلى منزله بالقطار، وكانت تلك

أول لمحة عن حياة «بول» العائلية، وكان يحسده على ذلك، فلماذا علاقته بأمه جيدة وعادية؟ وكان يتمنى أن تكون أمه مثل أم «بول»، وأن تكون لها حياتها الخاصة خارج نطاق الأسرة الضيق.

وقد هجر «جون» منزله هربا من ظلم الأسرة له، وهو نادرا الآن ما يرى والديه، ولا يزورهما على رغم أنهما يعيشان على مقربة منه، ولم يقم باصطحاب بول، أو أي من أصدقائه، ناهيك عن جاكلين، لزيارة والديه والتعرف عليهما، والآن وبعد أن أصبح لديه دخله الخاص، فإنه يستغل استقلاليته في استبعاد والديه من حياته، وهو يعلم أن أمه تشعر بالضيق والحزن، بسبب جمود عواطفه تجاهها، ذلك الجمود الذي رد به على حبها له طوال حياته. فطوال حياته كانت أمه تريد أن تدلله، وكان هو يقاوم ذلك، وهي غير مقتنعة بأن لديه ما يكفيه من المال لكي يعيش بمفرده، ولكنه يؤكد عكس ذلك، ففي كل مرة تراه تحاول دس مبلغ من المال، جنيه أو جنيهين في جيبه، قائلة: «مبلغ بسيط»، ولو أتيحت لها نصف فرصة لقامت بخياطة ستائر لشقته، وأخذ ملابسه المتسخة لتنظيفها، ويقول لنفسه يجب أن يكون قلبه قاسيا نحوها، فليس هذا الوقت الذي يتساهل فيه أو يثق في الآخرين.

# الفصل الثالث

يقرأ «جون» الآن كتاب «رسائل أيزرا باوند». وكان أيزرا باوند قد فصل من وظيفته في كلية «واباش» بولاية إنديانا الأمريكية بعد اكتشاف وجود امرأة في شقته في الكلية، وقد غضب «باوند» من هذا التصرف، الذي اعتبره يعبر عن ضيق أفق وترك أمريكا بأكملها احتجاجا على ذلك، وسافر إلى لندن، حيث تزوج فتاة جميلة اسمها «دوروثي شكسبير»، ثم سافرا معا للعيش في إيطاليا. وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية اتهم بمساعدة المنظمات الفاشية، والمشاركة في أعمالها، ولكي يهرب من عقوبة الإعدام ادعى الجنون وأودع مستشفى للأمراض العقلية.

والآن - في عام ١٩٥٩ - وبعد أن خرج من المستشفى وأصبح حرا عاد مرة أخرى إلى إيطاليا، حيث لا يزال منهمكا في مشروع عمره وهو «الأناشيد»(*). وجميع «الأناشيد» التي نُشِرت حتى الآن موجودة بمكتبة جامعة «كيب تاون»، وهي صادرة في طبعات «فابر»، وبخطوط مكونة من أحرف سوداء جميلة، تتخللها بين الحين والآخر أحرف صينية كبيرة، مثل دقات على قرص نحاسي، وهو منغمس تماما في قراءتها بل ويعيد قراءتها المرة تلو الأخرى، «متخطيا» الأجزاء المملة التي كتبها «باوند» عن «فان بورين» و«مالايتستا»، مستعينا بكتاب ت.س.إليوت عن باوند كدليل يسترشد به. وقد أطلق ت.س.إليوت بكل نبل ومروءة على «باوند»

---

(*) الأناشيد Cantos :أي الأقسام الرئيسية من قصائد طويلة (المترجم).

لفظ «الصانع الماهر». وبقدر ما يعجب جون بمؤلفات إليوت في حدٍّ ذاتها، فإنه يرى أن إليوت على حق.

وقد تعرض «أيزرا باوند» للاضطهاد معظم حياته: فقد جرى نفيه ثم سجنه ثم طرده من وطنه للمرة الثانية. وعلى رغم أنه اعتبر مجنونا فقد أثبت أنه شاعر عظيم، بل وأعظم من «والت ويتمان». وقد أطاع باوند شيطان الشعر وضحى بحياته في سبيل فنه، وقد فعل إليوت الشيء نفسه. وإن كانت معاناته ذات طبيعة خاصة أكبر، وقد عاش كل منهما حياة مليئة بالأسف والندم وأحيانا بالخزي والعار. وقد استفاد «جون» من هذا الدرس متأثرا بكل صفحة من أشعارهما، من أشعار «إليوت» أولا، الذي التقى كثيرا به عندما كان لا يزال طالبا بالمدرسة، والآن يلتقي بشعر باوند، وهو، شأنه شأن باوند وإليوت، يجب أن يكون مستعدا لتحمل كل ما تخبئه له الأيام، حتى لو كان ذلك يعني النفي والوظائف المتواضعة والعار والشنار. وإذا لم ينجح في أعظم اختبار للفن، وإذا ما اتضح أن كل ما يقوم به يفتقر إلى الموهبة الحقيقية: فسيكون لزاما عليه حينئذ أن يتحمل ذلك أيضا: حكم التاريخ الأزلي، وقدره في أن يكون صغير المقام، على رغم كل معاناته في الحاضر والمستقبل. فالكثيرون يستدعون، ولكن القليلين هم الذين يختارون. فمقابل كل شاعر عظيم توجد حفنة من الشعراء الأقل قدرا، كحشرات البرغش تحوم بأزيزها حول الأسد.

وحبه لـ «باوند» لا يشاركه فيه إلا واحد فقط من أصدقائه وهو «نوربرت». وقد ولد «نوربرت» في تشيكوسلوفاكيا ثم سافر

إلى جنوب أفريقيا عقب انتهاء الحرب، وهو يتحدث الإنجليزية بلثغة ألمانية بسيطة. وهو يدرس الهندسة لكي يصبح مثل والده، ويرتدي ملابس أوروبية أنيقة ذات طابع رسمي، ويغازل فتاة جميلة من أسرة عريقة بأسلوب مهذب، ويخرج معها للتنزه في شوارع المدينة مرة كل أسبوع، ويلتقي «جون» بـ «نوربرت» في إحدى صالات الشاي القائمة فوق منحدرات الجبل، حيث يتبادلان التعليقات حول أحدث ما كتبه كل منهما من قصائد، ويقرأ أحدهما للآخر فقرات من شعر «باوند».

وقد وجد «جون» أنه من الطريف أن «نوربرت»، الذي سيصبح مهندسا، وأنه هو (أي جون) سيصبح عالم رياضيات، كلاهما من مريدي أو تلاميذ أيزرا باوند، في حين أن الطلبة الآخرين، الذين يعرفهم ويريدون أن يصبحوا شعراء ويدرسون الأدب ويشرفون على إصدار المجلة الأدبية للجامعة، متأثرون بـ «جيرارد مانلي هوبكنز».

و«جون» نفسه درس مقتطفات من شعر «هوبكنز» لفترة قصيرة، حينما كان طالبا بالمدرسة، وكان يكتب أشعارا بها كثير من الكلمات ذات المقطع الواحد، التي تحمل نبرة وتشديدا، متحاشيا أي كلمة من أصل لاتيني.

ولكن بمضي الزمن بدأ يفقد تذوقه لـ «هوبكنز»، كما كان في سبيله لأن يفقد تذوقه لشكسبير. فشعر «هوبكنز» مليء بالأصوات الساكنة، وشعر شكسبير مليء بالاستعارات والتعبيرات المجازية، كما يهتم كل منهما كثيرا باستخدام كلمات غير مألوفة، وخاصة من اللغة الإنجليزية القديمة، مثل (maw, reck, pelf).

وهو لا يرى ضرورة في أن يستخدم الشعر عبارات حماسية أو خطابية، بل يكفي أن يعبر عن لغة الكلام العادية، ويجب ألا يختلف في الواقع عن لغة النثر.

ويبدأ جون يفضل «بوب» على شكسبير، و«سويفت» على «بوب». وعلى رغم أنه يتقبل أسلوب «بوب» بعبارته شديدة الدقة، فإنه يرى أنه يهتم كثيرا بالطبقات الأرستقراطية، في حين أن «سويفت» إنسان بسيط وينزع إلى العزلة والوحدة.

كما يحب تشوسر أيضا. والأدب في العصور الوسطى كان مملا ويستحوذ مبدأ العفة والطهارة ويتحكم فيه رجال الدين. وكان معظم شعراء العصور الوسطى يتسمون بالخجل ويستعينون بالكتابات اللاتينية القديمة للاسترشاد بها. إلا أن تشوسر يختلف عنهم، حيث قل تأثره بتلك الكتابات إلى حد كبير. وهو على خلاف شكسبير لا يكثر من الكلمات الرنانة والعبارات الجوفاء.

وبالنسبة إلى الشعراء الإنجليز الآخرين فقد تعلم من باوند كيف يقتبس من الشعراء الرومانسيين وشعراء العصر الفيكتوري، كيف يعبرون عن عواطفهم بعبارات بسيطة، مع الإقلال من نظم الشعر، ويحاول كل من باوند وإليوت إحياء الشعر الإنجليزي - الأمريكي بإعادة التعليقات اللاذعة إليه، كما هي الحال في الشعر الفرنسي. وهو راض عن ذلك تماما، ويتساءل: كيف كان مفتونا بـ كيتس ذات يوم بحيث يكتب قصائد متأثرة بأسلوب «كيتس» ويعجز عن فهمها، وشعر كيتس يشبه البطيخ: طري وحلو وأحمر اللون، بينما الشعر يجب أن يكون صلبا وواضحا كاللهب. وقراءة عشر صفحات من شعر «كيتس» تشبه الوقوع في شباك امرأة.

وكان يرى أنه سيكون أكثر ثباتا ورسوخا في اتباعه لـ باوند لو تمكن بالفعل من قراءة اللغة الفرنسية، إلا أن كل الجهود التي بذلها لتعليم نفسه الفرنسية ذهبت أدراج الرياح، وليست لديه ميول لهذه اللغة، التي يقول إن كلماتها تبدأ بنبرة قوية ثم تخفت في النهاية إلى ما يشبه الهمس، ولذلك يجب أن يأخذ ما يقوله «باوند» و«إليوت» عن أن «نيرفال» و«كوربيير» و«لافورج». يرشدونه إلى الطريق الواجب اتباعه مأخذ صدق.

وكان ينوي عند التحاقه بالجامعة أن يتخرج فيها عالم رياضيات، ثم يسافر إلى الخارج ويهب حياته للفن، هذا بفرض أن تسير هذه الخطة كما رسمها مع تلبية متطلبات تحقيقها ومن دون أن يحيد عنها. وكان ينوي أثناء مرانه على إتقان مهاراته الشعرية في الخارج أن يكسب قوت يومه بأداء أعمال غير ذات قيمة، ولكنها شريفة، وحيث إن عظماء الفنانين مكتوب عليهم أن يظلوا مغمورين لفترة من الزمن فهو يتخيل أنه سيقضي فترات تكوينه الأولى موظفا كتابيا بسيطا يقوم بجمع أعمدة أرقام في غرفة خلفية. ومن المؤكد أنه لن يكون شخصا بوهيميا، أي ليس سكيرا أو متطفلا أو صعلوكا.

والذي يجذبه نحو الرياضيات، فضلا عن الرموز المستخدمة فيها، التي لا يفهمها إلا القليلون، هو الطابع النظري البحت لها. ولو كان بالجامعة قسم للفكر البحت لربما التحق به، إلا أن الرياضيات البحتة تبدو أقرب ما يكون إلى عالم الرموز والأشكال.

ولكن هناك عقبة واحدة تقف أمام تحقيق خطته الدراسية، وهي أن اللوائح الجامعية لا تسمح للطالب بدراسة الرياضيات

البحتة فقط، فمعظم الطلبة الذين يدرسون معه يدرسون خليطا من الرياضيات البحتة والرياضيات التطبيقية والفيزياء، وهو يرى أنه من المستحيل عليه أن يسير في هذا الاتجاه، فعلى رغم أنه – وهو صغير – كان لديه اهتمام عابر بمسائل الصواريخ والانشطار النووي، فليس لديه ميل لما يسمى بالعالم الحقيقي، ويعجز عن فهم الأشياء كما هي عليه في الطبيعة: لماذا تتوقف الكرة المرتدة عن الارتداد، مثلا؟ ولا يجد زملاؤه من الطلبة صعوبة في الإجابة عن هذا السؤال: وهو أن معامل مرونة الكرة أقل من واحد. ولكنه يتساءل لماذا يحدث ذلك؟ ولماذا معامل المرونة واحد بالضبط وليس أكثر. وعندما يسمع زملاؤه أسئلته هذه يهزون أكتافهم تعبيرا عن عدم اهتمامهم بأسئلته، فهم يرون أننا نعيش في العالم الحقيقي، وفي العالم الحقيقي معامل المرونة هو دائما أقل من واحد، ولكنه لا يقتنع بهذا الجواب.

ونظرا لأنه غير متعاطف مع العالم الحقيقي فهو يتجنب دراسة العلوم ويدرس بدلا منها مناهج في اللغة الإنجليزية والفلسفة والدراسات الكلاسيكية القديمة. وهو يريد أن ينظر إليه على أنه طالب يدرس الرياضيات، وتصادف أن يدرس بضعة مقررات فنية. ولكن الذي يحزنه أن الطلبة الذين يدرسون العلوم ينظرون إليه على أنه دخيل عليهم، وليس لديه اهتمام حقيقي بالرياضيات، التي يحضر محاضراتها ثم سرعان ما يختفي في مكان لا يعلمه إلا الله.

ونظرا إلى أنه سيصبح عالم رياضيات ينبغي عليه أن يقضي معظم وقته في دراستها، ولكن الرياضيات في نظره سهلة بينما

اللغة اللاتينية صعبة، حيث درجاته فيها منخفضة. وفي السنوات التي قضاها بالمدرسة الكاثوليكية تعلم قواعد النحو في اللغة اللاتينية، ويمكنه كتابة نثر صحيح، وإن كان بشكل بطيء، على نسق شيشرون، أما كتابات فرجيل وهوراس وما تتميز به من ترتيب عشوائي للكلمات وكلمات منفرة فتظل توقعه في حيرة.

وهو يدرس اللغة اللاتينية في مجموعة صغيرة معظم طلبتها يدرسون اللغة اليونانية أيضا؛ إذ يرون أن تعلم اليونانية يسهل عليهم تعلم اللاتينية. ويتعين عليه أن يكافح للحاق بهم، وألا يجعل من نفسه أضحوكة في أعينهم.

وأحد عوامل الجذب السرية في الرياضيات هو استخدامها للأبجدية اليونانية، وعلى رغم أنه لا يعرف من الكلمات اليونانية أكثر من hubris, arete, eleutheri، فهو يقضي ساعات طوالا لإتقان كتابة الحروف اليونانية ويضغط بشدة على الحروف من نوع «البودوني».

واللغة اليونانية والرياضيات هما في نظره أسمى المواد التي يمكن أن يدرسها أي طالب جامعي. وهو من بعيد ينظر باحترام وتقدير إلى أساتذة اللغة اليونانية التي لا يستطيع أن يدرس مقررات فيها: مثل «أنتون باب»، عالم البردي، و«فوريس بوب»، مترجم أعمال «سوفوكليس»، و«موريتس هيمسترا»، الذي كتب تعليقات عن «هيراكليتس». و«جون» يضعهم في منزلة سامية بالإضافة إلى «دوجلاس سيرز» أستاذ الرياضيات.

وعلى رغم كل ما يبذله من جهد في دراسة اللغة اللاتينية فإن درجاته فيها ليست مرتفعة، وخاصة بسبب دراسة التاريخ

اليوناني، الذي يقوم بتدريسه شاب إنجليزي شاحب الوجه، وتبدو عليه مظاهر التعاسة، واهتمامه الحقيقي يكمن في «ديجنيس أركتياس». وطلبة كلية الحقوق الذين يضطرون إلى دراسة اللغة اللاتينية يعرفون ضعفه ويعذبونه، وهم يحضرون إلى محاضراتهم متأخرين ويغادرونها قبل انتهاء موعدها، ويصنعون طائرات ورقية في أثناء المحاضرة، ويتهامسون وعندما يلقي المدرس إحدى النكات القديمة يضحكون بصوت أجش، ويدقون الأرض بأقدامهم من دون توقف.

وحقيقة الأمر هي أن جون وطلبة الحقوق كلهم يشعرون بالملل، وربما أستاذهم أيضا، وذلك ربما بسبب تقلبات أسعار القمح في عهد الإمبراطور الروماني كومودوس. ومن دون معرفة الحقائق لا يمكن معرفة التاريخ، وليس لديه صبر على حفظ الحقائق: فعندما يحل موعد الامتحان ويطلب منه كتابة أفكاره عن أسباب حادثة ما في عهد الإمبراطورية المتأخرة، لا يجد ما يكتبه ويحملق في ورقة الإجابة الخالية في بؤس وتعاسة.

وقد درس الطلبة «تاسيتوس» مترجما، وقرأوا مرارا وتكرارا ما ارتكبه الأباطرة من مظالم وتجاوزات وصدور العديد من الأحكام الجائرة، التي ليس لها من مبرر، وإذا أراد أن يصبح شاعرا فعليه أن يتلقى دروسا من «كاتولوس»، شاعر الحب، الذي يقوم الطلبة بترجمة أشعاره في قاعة الدرس، ولكن كتابات «تاسيتوس» المؤرخ، الذي يكتب بلغة إنجليزية صعبة، لا يستطيع أن يفهمها في نصها الأصلي هو الذي يحظى بإعجابه بالفعل.

وبناء على نصيحة «باوند» اتجه إلى قراءة فلوبير، بدءا برواية «مدام بوفاري»، ثم سلامبو التي تدور أحداثها حول قرطاج القديمة، بينما امتنع تماما عن قراءة «فيكتور هوجو»، والذي يقول عنه باوند إنه ثرثار كثير الكلام بشكل ممل، في حين أن فلوبير ينقل إلى النثر جواهر فن الشعر، تلك المهمة الصعبة. ومن عباءة فلوبير خرج عدة كتاب آخرين، أولهم هنري جيمز، ثم كونراد، ثم فورد ماكس فورد.

وهو معجب بكتابات فلوبير، خاصة ما كتبه عن «إيما بوفارتي» بعينيها الزرقاوين وشهوانيتها المضطربة. وهو يتخيل لقاءها ولكنه ليس واثقا من أن ذلك سبب كاف لإعجابه بـ «فلوبير»، إذ لا يزال شعوره المرهف فيه بعض من أثر «كيتس» القديم الذي يترسب في أعماقه.

ومما لا شك فيه أن إيما بوفارتي شخصية خيالية لن يلتقي بها في الطريق أبدا، ولكن تلك الشخصية لم تأت من فراغ؛ إذ تعود في أصولها إلى خبرة وتجارب مؤلفها بلحمه ودمه، تلك التجارب التي خضعت فيما بعد في تشكيلها للهيب الفن. ولو كانت هذه شخصية حقيقية لوجد مثلها نساء كثيرات في العالم الحقيقي. وحتى لو لم يكن الأمر كذلك، أي لا يوجد في العالم الحقيقي نساء يشبهن إيما تماما، فمن المؤكد أنه توجد نساء كثيرات تأثرن إلى حد كبير بقراءتهن للرواية، لدرجة أنهن يقعن في أسرها، ويتحولن إلى أشكال منها. وقد لا يكنَّ مثل إيما الحقيقية، ولكنهن إلى حد ما تجسيد حي لها.

ويطمع جون في أن يتمكن من قراءة كل ما يستحق القراءة قبل سفره إلى الخارج، حتى لا يصل إلى أوروبا وهو ريفي ساذج. وهو

يسترشد بـ إليوت وباوند في اختياره لما يقرأه، ولذلك يبتعد تماما عن قــراءة مــؤلـفــات «سكوت» و«ديكنز» و«ثاكــرتي» و«ترولوب» و«مريديث»، وكذلك كتابات المؤلفين الألمان والإيطاليين والإسبانيين في القـرن التـاسع عـشـر، التي تعتـبـر في نظره غـيـر جـديرة بالاهتمام، بناء على نصيحة إليوت وباوند. وأما روسيا فربما خرج منها كتاب عمـالقـة كبار، ولكن الفنانين الروس ليس لديهم مـا يتعلمه منهم الآخرون، فمنذ القرن الثامن عشر أصبحت الحضارة مسألة إنجليزية - فرنسية خالصة.

ومن ناحية أخرى توجد جيوب صغيرة لحضارة عظيمة في أزمنة قديمة، لا يمكن للمـرء أن يتـجـاهلهـا: ليس أثينا ورومـا فحسب بل ألمانيا في عهد «فالترفون دير فوجلفاير»، «بروفانس» في عـهـد «أرنود انيـال»، وفلورنسـا في عـهـد دانتي و«جـيـدو كافالكانتي»، ناهيك عن الصين في عهد تانج، والهند في عهد المغول وإسبـانيـا في عـهـد المرابطين، ولذلك فـإنه إن لم يتـعلم اللغات الصينية والفارسية والعربية، أو على الأقل قدرا منهـا، يمكِّنه من قراءة المؤلفات القديمة المكتوبة بها في ترجمة حرفية، فقد يكون إنسـانا بربريا وغيـر متـحـضـر. ولكن أنَّى له أن يجد الوقت لتحقيق ذلك؟!

وفي بداية دراسـتـه لمقـررات اللغـة الإنجليـزية واجـه بعض الصـعـوبات، وكـان مـدرس الأدب الإنجليـزي شـابا صـغـيـرا من مقاطعة ويلز اسمه السيد جونز، وكان حديث عهد بجنوب أفريقيا وبداية عمله في التدريس. وسرعان ما اكتشف طلبة كلية الحقوق الذين كانوا يدرسـون الإنجليـزية - كمـادة إجبـارية مـثل اللغـة

الإنجليزية - عدم ثقته في نفسه: فكانوا يتثاءبون في وجهه، ويتظاهرون بالغباء، ويقلدون طريقته في الكلام، لدرجة أنه كان أحيانا يصاب باليأس التام.

وكان أول الواجبات المنزلية التي كلفهم بها كتابة دراسة تحليلية نقدية لقصيدة من تأليف «أندرو مارفيل». ولم يفهم جون ما المقصود تماما بالنقد التحليلي، إلا أنه بذل قصارى جهده، وقد أعطاه السيد جونز درجة «جاما»، وجاما ليست أقل درجة في سلم الدرجات؛ إذ هناك درجة أقل منها، وهي جاما ناقص، ناهيك عن درجات «دلتا» الأخرى، ولكن جاما ليست درجة جيدة. وكثير من الطلبة، ومن بينهم طلبة الحقوق، حصلوا على درجة «بيتا»، كما حصل طالب واحد على درجة ألفا ناقص. وعلى رغم أن زملاءه لم يكونوا مهتمين بالشعر، فقد عرفوا شيئا لم يعرفه هو، ولكن ما هو هذا الشيء؟ وكيف يتفوق الإنسان في اللغة الإنجليزية؟

والسيد جونز والسيد بريانت والآنسة «ويلكنسون» المدرسون بالمدرسة كانوا جميعا من الشباب، وكانوا في نظر جون لا حول لهم ولا قوة، وكانوا لا يظهرون ضجرهم من سلوك طلبة الحقوق، آملين أن يتوقفوا عن الشغب بعد أن يملوا من ذلك. وأما جون فلم يكن متعاطفا مع المدرسين في محنتهم، وكان يريد منهم إظهار السلطة وليس الخنوع والضعف.

وطوال السنوات الثلاث التي درس فيها الإنجليزية على يد السيد جونز كانت درجاته تتحسن ببطء، ولكنه لم يكن بالمرة أنبغ طالب في الفصل، وكان إلى حد ما يبذل قصارى جهده من دون

أن يعرف كيف تكون دراسة الأدب. ولم يجد صعوبة في دراسة فقه اللغة الإنجليزية وتطورها، مقارنة مع دراسة النقد الأدبي، فعلى الأقل في معرفة تصريفات الأفعال في اللغة الإنجليزية القديمة، أو التغيرات الصوتية التي طرأت على اللغة الإنجليزية الوسطى يعرف الإنسان الاتجاه السليم الذي يسلكه في الدراسة.

والآن وجون في الفرقة الرابعة يسجل في مقرر لدراسة النثر الإنجليزي القديم على يد بروفيسور «جي هوارث»، وكان الطالب الوحيد في هذا المقرر. وكان مشهورا عن الأستاذ هوارث أنه إنسان جاف ومتزمت ومتحذلق، ولكن جون لا يهتم بذلك، فهو ليس ضد المتحذلقين بل يفضلهم على محبي المظاهر.

ويلتقي جون بأستاذه مرة كل أسبوع في مكتبه، حيث يقوم الأستاذ بقراءة المحاضرة بصوت عال، بينما يسجل جون أهم النقاط والملاحظات. وبعد بضعة لقاءات يسلم الأستاذ إلى جون نص المحاضرة ليقرأها في منزله.

والمحاضرات مطبوعة على الآلة الكاتبة، وعلى شريط غير واضح، وورق أصفر اللون، ويخرجها الأستاذ من خزانة يضع فيها ملفا عن كل كاتب إنجليزي، بدءا من «أوستن»، وانتهاء بـ «بيتس». ويتساءل جون في قرارة نفسه: هل هذا ما يجب أن يفعله الإنسان لكي يكون أستاذا للغة الإنجليزية، أن يقرأ مؤلفات الكتاب المعروفين، ويكتب محاضرة عن كل منهم؟ وكم يختصر ذلك من سنوات من عمر الإنسان؟ وما أثر ذلك في روحه المعنوية؟

و«هوارث» أسترالي الجنسية، ويبدو أنه يرتاح إلى جون من دون أن يدري الأخير سر هذا الارتياح، وعلى رغم أن جون من

ناحيته لا يقول إنه يحب هوارث، فهو ميال إلى أن يحميه من النقد بسبب رعونته وقلة ذوقه، واتهامه لطلبة جنوب أفريقيا باطلا بأنهم لا يهتمون بالشخصيات التي يهتم هو بها، مثل «جاسكوين» و«ليلي»، وفي هذه الحالة شكسبير.

وفي آخر أيام الفصل الدراسي وعقب انتهاء الامتحانات النهائية يترك هوارث لجون ورقة يدعوه فيها إلى زيارته قائلا: «احضر إلى منزلي مساء الغد لنتناول شرابا معا».

ويقبل جون الدعوة ولكن على مضض، فزيادة على ما يتبادله من أحاديث مع أستاذه عن كتاب النثر في العصر الإليزابيثي، ليس لدى جون ما يضيفه، كما أنه لا يحب الشراب، وإذا تناول النبيذ يشعر بضيق ومرارة في فمه بعد الرشفة الأولى، ولا يفهم لماذا يتظاهر الناس بالاستمتاع بالشراب.

ويجلس جون في غرفة المعيشة ذات السقف المرتفع والضوء الخافت في منزل هوارث وزوجته بمنطقة الحدائق. ويكتشف جون أنه الوحيد المدعو إلى هذا اللقاء. ويتحدث هوارث عن الشعر الأسترالي وعن كينيث «سليسور» و«أ.د. هوب». وبين الحين والآخر تمر زوجة هوارث أمامها جيئة وذهابا مرورا عابرا. ويشعر جون أنها غير مرحبة بوجوده، وتعتبره شديد التزمت، ويفتقر إلى التفاؤل والحماس وسرعة البديهة. واسم هذه الزوجة ليليان وهذا هو الزواج الثاني له. ومما لا شك فيه أنها كانت رائعة الجمال في شبابها، وأما الآن فهي مجرد امرأة قصيرة القامة رفيعة الساقين، تضع كمية كبيرة من المساحيق على وجهها، كما يقال إنها امرأة شهوانية، وتتصرف بأسلوب

مخجل يندى له الجبين، وذلك بعد احتسائها للشراب بشراهة حتى الثمالة.

وقد اكتشف جون أن أستاذه دعاه لغرض معين، إذ ينوي «هوارث» وزوجته السفر للخارج وعدم العودة قبل ستة أشهر، وسأله الأستاذ ما إذا كان مستعدا لأن يعيش في بيته ويرعاه أثناء غيابه، من دون دفع إيجار أو أي مصروفات أخرى، مقابل تحمل بعض المسؤوليات البسيطة تجاه المنزل.

ويقبل «جون» هذا العرض على الفور، ويشعر بالزهو لأن أستاذه طلب منه ذلك. كما أنه إذا ترك شقته في «موبراي يمكنه بسرعة توفير مبلغ يكفي لشراء تذكرة باخرة للسفر إلى إنجلترا مستقبلا».

ولهذا المنزل جاذبية خاصة بفخامته وامتداده على المنحدرات السفلية للجبل، على رغم وجود ممرات مظلمة وغرف مغلقة ذات رائحة كريهة تنبعث منها.

ولكن هناك عيبا واحدا في هذا العرض: في الشهر الأول سيشاركه في البيت اثنان من ضيوف آل هوارث، وهما سيدة من نيوزيلندا وابنتها ذات الأعوام الثلاثة. ولكنه سرعان ما اكتشف أن تلك المرأة مدمنة على تناول الخمر، لذلك يتجنب الاحتكاك بها تماما، إذ هو يكره الخمر ولم يذقها طوال حياته، وإذا حضر حفلة يغادرها مبكرا، حتى لا يسمع السكارى وهم يتلعثمون بكلمات تعبر عما في داخل أنفسهم. ويرى جون أن قائدي السيارات السكارى يجب أن تضاعف لهم العقوبة بدلا من تخفيفها. ولكن في جنوب أفريقيا أي تجاوزات ترتكب تحت تأثير الخمر ينظر إليها بعين

التساهل والتسامح، لدرجة أن أصحاب المزارع السكارى يضربون العمال بالسياط حتى الموت.

وهذا يجعله يفكر لماذا يلجأ الناس إلى أعمال الشر، فالأسوياء لا يميلون إلى الشر، وهو بالنسبة إليهم بمنزلة حالة هياج وانفعال يجب التخلص منها، ولكن بالنسبة إلى الفنانين فهم يحتاجون إلى أن يتعايشوا مع هذا الانفعال، سواء كان طبيعته طيبة أو سيئة، فالانفعال هو الذي يجعلهم فنانين، لذلك يجب أن يظل متوقدا. ولهذا السبب لا يشعر الفنانون بأنهم موجودون بكليتهم في هذا العالم، إذ إحدى أعينهم تتجه دائما نحو داخلهم. وأما بالنسبة إلى النساء اللواتي يحببن الفنانين فلا يمكن أن يكن موضع الثقة التامة. فإذا كانت روح الفنان شرارة وانفعالا معا فإن المرأة التي تحب أن تلسعها تلك الشرارة تسعى، في الوقت نفسه، إلى أن تكبت هذا الانفعال وتجعل الفنان إنسانا عاديا.

# الفصل الرابع

يبحث جون عن وسيلة لزيادة دخله، لذلك يقوم بتدريس مجموعة مسائية أخرى في قسم الرياضيات، لطلبة الفرقة الأولى، الذين يُسمح لهم بتوجيه أسئلة إليه عن الرياضيات التطبيقية، بالإضافة إلى الرياضيات البحتة، ونظرا إلى أنه لم يدرس الرياضيات التطبيقية إلا لمدة عام واحد، فإن معلوماته في هذا التخصص لا تزيد كثيرا على معلومات الطلبة المفترض أن يساعدهم، ولذلك يقضي ساعات طوالا لتحضير الدروس.

وعلى رغم أنه يعيش في عالم خاص به يخيم عليه الهم والقلق، فإنه يشعر بما يدور حوله من اضطرابات يتعرض لها وطنه، فالقوانين التي يخضع لها الأفارقة، والأفارقة وحدهم، تزداد إجحافا وصرامة، ومظاهرات الاحتجاج تندلع في كل مكان، وفي منطقة «ترانسفال» تطلق الشرطة النار على جموع المتظاهرين، بل تستمر في إطلاق النار على ظهور الرجال والنساء والأطفال الهاربين من التظاهرات، وهذا الوضع يصيبه بالغثيان والاشمئزاز من بدايته إلى نهايته، فالقوانين في حد ذاتها، ورجال الشرطة المجرمون، والحكومة التي تدافع علنا عن القتلة وتندد بقتلى التظاهرات، والصحافة التي تخشى أن تقول الحق أو تصف ما يمكن أن يراه كل ذي عينين.

وبعد مذبحة «شاربفيل» لم تعد الأمور كما كانت عليه من قبل، فحتى منطقة الكيب المسالمة لم تخل من الإضرابات ومسيرات

الاحتجاج، وكلما تقوم مسيرة يحيط بها رجال الشرطة شاهرين بنادقهم، منتظرين أي حجة أو ذريعة لإطلاق النار.

ووصلت الأمور إلى طريق مسدود ذات مساء في أثناء وجوده مع المجموعة الدراسية في قاعة صغيرة، وهو يمر بين الطلبة لمعرفة ما يواجههم من صعوبات في حل التمارين المكلفين بها ومساعدتهم، وفجأة يفتح الباب على مصراعيه ويدخل أحد الأساتذة القدامى، ويدق بقبضته على الطاولة قائلا بصوت مختنق ووجه أحمر: «يرجى الانتباه! ضعوا الأقلام وانتبهوا لي، يقوم العمال في هذه اللحظة بمسيرة في شارع «دي فال»، وحرصا على سلامتكم، طُلب مني إبلاغكم بعدم مغادرة الحرم الجامعي، لحين صدور إشعار آخر. أكرر لن يسمح لأحد بالمغادرة، هذه أوامر الشرطة، هل لديكم أي أسئلة؟».

نعم، هناك سؤال واحد على الأقل يتبادر إلى الذهن وإن كان الوقت ليس مناسبا له: إلى أين يتجه الوطن الذي لا يستطيع فيه المدرس أن يلقي الدرس في أمان؟ وأما بالنسبة إلى أوامر الشرطة، فإنه لا يصدق، ولو لبرهة واحدة، أن قوات الأمن تحاصر الحرم الجامعي، وتمنع الدخول إليه لمصلحة الطلبة، بل إنها تفعل ذلك للحيلولة دون خروج الطلبة من هذا المكان - المعروف عنه أنه معقل اليساريين - والانضمام إلى المسيرة، هذا كل ما في الأمر.

ولم يعد هناك أمل في استمرار الدرس، إذ كانت القاعة تعج بالأحاديث بين الطلبة الذين بدأوا في إعداد حقائبهم استعدادا للمغادرة، متلهفين لمعرفة ما ستسفر عنه الأحداث.

ويسير جون خلف الجماهير عبر الجسر المطل على شارع «دي فال»، وقد توقفت حركة المرور تماما، واتجهت الجماهير نحو طريق «وولساك»، وسارت في خطوط متعرجة في كل صف منها عشرة أشخاص أو عشرون شخصا، ثم اتجهوا شمالا حتى وصلوا إلى الطريق السريع، وكان معظم المتظاهرين من الرجال في ملابس باهتة عبارة عن «أفرولات» عمال ومعاطف من مخلفات الجيش وطواق صوفية، وكان بعضهم يحمل عصيا، وجميعهم يسيرون بسرعةً، وفي صمت، وكانت المظاهرة ضخمة بحيث تمتد على مدى البصر، ولو كانت هناك قوات أمن لكانت ستصاب بالرعب من هذا الحشد الهائل.

وسمع جون طالبا ملونا يسير بالقرب منه يقول: «إنه PAC(*)»، وكانت نظرته ثاقبة، وفي عينيه بريق، هل هو صادق فيما يقول، وكيف علم ذلك؟ وهل هناك علامات مميزة تدل على ذلك، والـ PAC ليس مثل ANC(**)، إذ هو أكثر تهديدا وخطورة ومن شعاراته «أفريقيا للأفريقيين! اقذفوا بالبِيض في البحر!».

وبلغ حجم المسيرة عدة آلاف، وساروا جميعا في طريق متعرج وصولا إلى التل، وهم لا يشبهون الجيش في سيرهم، بينما هم بالفعل كذلك، كجيش، جرى استدعاؤه فجأة من قفار سهول الكيب، وعندما يصلون إلى المدينة ما الذي ستكون عليه الحال؟ على أي حال، لن يكون هناك ما يكفي من قوات الأمن لإيقاف المسيرة، ولا طلقات رصاص تكفي لقتلهم.

---

(*) مؤتمر عموم أفريقيا

(**) المؤتمر الوطني الافريقي الذي ينتمي إليه الزعيم نيلسون مانديلا (المترجم)

وعندما كان «جون» في الثانية عشرة من عمره اقتيد مع غيره من التلاميذ وحشروا في باص مدارس اتجه بهم نحو شارع «أدرلي»، حيث أعطيت لهم أعلام ذات ألوان برتقالي وأبيض وأزرق، وطلب منهم رفعها والتلويح بها لدى مرور موكب عربات مكشوفة يجلس فيها يان فان ريبيك وزوجته، التي كانت ترتدي ثوبا محتشما من ملابس «البوير»، ومواطنو «فورتريك» ببنادقهم القديمة، و«بول كروجر» بجسمه البدين وكرشه الضخم».

وتحدث رجال السياسة قائلين في خطبهم: بعد ثلاثمائة عام من التاريخ، وثلاثمائة عام من الحضارة المسيحية عند طرف أفريقيا (الجنوبي)، نقول شكرا للرب، ولكن الآن، وأمام ناظريهم، فإن الرب لا يحميهم، وهو يشاهد التاريخ يتعرض للهدم في ظل الجبل.

وفي السكون المحيط به ووسط الطلبة من خريجي مدرسة «روند بوش»، الثانوية للبنين والكلية الاسقفية بملابسهم الأنيقة، والذين كانوا قبل ذلك بنصف ساعة منهمكين في حساب زوايا المتجهات ويحلمون بمستقبل في عالم الهندسة المدنية، يلمس جون ما يشعرون به، من صدمة ورعب، إذ كانوا يتوقعون أن يستمتعوا برؤية عرض جميل، وأن يضحكوا ضحكة خفية وهم يشاهدون موكب أطفال في عمر الزهور، وليس مشاهدة ذلك المنظر الكئيب، الذي أفسد عليهم مساءهم، وكل ما يريدونه الآن هو العودة إلى بيوتهم، وشرب زجاجة كوكاكولا، وتناول ساندويتش ونسيان ما حدث.

ولكن ماذا كان شعور «جون»؟ هو لا يختلف عنهم، وكان كل ما يفكر فيه هو: هل ستستمر السفن في الإبحار غدا؟ ولسان

حاله يقول: يجب أن أغادر هذا المكان بأسرع ما يمكن وقبل فوات الأوان.

وفي اليوم التالي، وبعد أن انتهى كل شيء، وعاد المتظاهرون إلى بيوتهم، اختارت الصحف الأسلوب الذي تصف به ما حدث: التنفيس عن غضب مكبوت، نزع فتيل الكثير من مسيرات الاحتجاج التي اندلعت في مختلف أنحاء البلاد في أعقاب مذبحة شاريفيل بفضل التصرف السليم هذه المرة لقوات الأمن، وتعاون قادة المسيرة، ننصح الحكومة بأخذ عبرة مما حدث، يتضح من عناوين الصحف هذه أنها تحاول أن تخفف من هوّل الأحداث، ولكن ذلك لا يخدعه، فبمجرد سماع صفارة يمكن أن يخرج الرجال أنفسهم من أكواخ سهول الكيب، وثكناتها بأعداد أكبر وأشد قوة، من ذي قبل، مسلحين هذه المرة ببنادق من صنع الصين، ما الداعي للوقوف ضدهم إذا كنت لا تؤمن بما يدعون إليه؟

والآن، جاء دور الحديث عن قوة الدفاع، فعندما أنهى دراسته الثانوية كان شاب واحد فقط من ثلاثة يستدعى للخدمة العسكرية.

وكان جون سعيد الحظ لأنه لم يصبه الدور في التجنيد، ولكن تغير كل شيء الآن بعد صدور لوائح جديدة، إذ يمكن في أي وقت أن يجد إخطار استدعاء له موضوعا في صندوق البريد، مكتوبا عليه ما يلي: «يتعين عليك الحضور إلى القلعة في تمام الساعة التاسعة من صباح يوم كذا، ولا تحضر معك إلا لوزام الحمام»، ومعسكر التدريب الذي سمع عنه كثيرا موجود في مدينة

«فـورتريكر هوجـتي»، فـي منطقـة «التـرانسـفـال»، حـيث يـرسل المجندون من مـدينة الكاب لتدريبـهم بعيدا عن أهلهم، ويمكن في ظرف أسبوع أن يجد نفسه خلف أسلاك شائكة في ذلك المعسكر، يعيش في خيمة واحدة مع شباب من البلطجية والمجرمين من فئة «الأفريكانز»، ويتناول لحمـا بقـريا مـعلبا (بولبيف)، ويستـمع إلى «جوني راي» فـي إذاعة «سبـرينجبـوك»، وهو لا يمكنه أن يتـحمل ذلك، وقد يقوم بقطع شريان يده، وليس أمـامه سوى طريق واحد، وهو الهرب، ولكن كيف يهرب قبل تخرجه في الجامعة؟ إذ إن ذلك يصبح مثل السفـر في رحلة طويلة، رحلة العمـر، دون مـلابس أو مال أو سلاح (مقارنة على مضض).

# الفصل الخامس

في ساعة متأخرة... وبعد منتصف الليل يستلقي «جون» على أريكة في شقة «بول» الصغيرة في «بلسيز بارك» داخل كيس النوم الذي أحضره معه من جنوب أفريقيا، وفي الجانب الآخر من الغرفة ينام «بول» على سريره ويبدأ في الشخير. ومن خلال فتحة صغيرة في الستارة تسطع السماء بلون برتقالي مشوب باللون البنفسجي، وعلى رغم أن «جون» غطى قدميه بوسادة فإنه يشعر بهما باردتين كالثلج، لا بأس: إنه في لندن.

وهناك مكانان أوربما ثلاثة في العالم يمكن أن يعيش الإنسان حياته فيها بالطول والعرض وهي: لندن وباريس وربما فيينا. وتأتي باريس في المقدمة، فهي مدينة الحب والفن. ولكن لكي يعيش الإنسان في باريس يجب أن يكون قد تعلم الفرنسية في إحدى مدارس الطبقة الراقية، أما فيينا فهي لليهود العائدين إليها كحق مكتسب بالولادة: المنطق الوضعي، والموسيقى ذات النغمات الاثنتي عشرة على السلم الموسيقى، والتحليل النفسي. وتبقى لندن، التي يمكن لأبناء جنوب أفريقيا دخولها دون وثائق سفر، والتي يتحدث أبناؤها اللغة الإنجليزية، وقد تكون لندن قاسية القلب وتشبه المتاهة وباردة، ولكن خلف جدرانها الصارمة يعمل الرجال والنساء على قدم وساق في تأليف الكتب ورسم اللوحات ووضع الألحان الموسيقية، ويمر الإنسان عليهم يوميا في الطرقات من دون أن

يعرف أسرارهم، وذلك بسبب ما هو معروف عن الشعب البريطاني من تحفظ هو موضع الإعجاب.

ويدفع «جون» لـ «بول» جنيهين أسبوعيا نظير الإقامة معه في شقته الصغيرة، التي هي عبارة عن غرفة نوم واحدة وملحق يوجد به موقد غاز وصنبور ماء بارد (الحمام ودورة المياه بالطابق العلوي ومخصصة للمنزل بأكمله). وكل ما ادخره «جون» في جنوب أفريقيا وأحضره معه إلى لندن لا يزيد على ٤٨ جنيها، ولذلك يجب أن يبحث عن عمل في الحال.

يتوجه «جون» إلى مكاتب مجلس محافظة لندن ويسجل اسمه في كشف المدرسين الاحتياطيين المستعدين لشغل الأماكن الشاغرة على الفور. ويطلب منه حضور مقابلة للعمل في مدرسة ثانوية حديثة بمنطقة «بارنيت» الواقعة في نهاية الخط الشمالي لمترو الأنفاق. والشهادة الجامعية الحاصل عليها هي في الرياضيات واللغة الإنجليزية، لكن ناظر المدرسة يريده أن يقوم بتدريس الدراسات الاجتماعية، بالإضافة إلى الإشراف على حمام السباحة بالمدرسة مرتين أسبوعيا بعد الظهر. ولكن «جون» يعترض قائلا: «ولكني لست سباحا»! فيرد عليه الناظر: «ولكن يمكنك أن تتعلم السباحة، أليس كذلك؟».

ويغادر «جون» المدرسة حاملا نسخة من الكتاب المقرر في الدراسات الاجتماعية، وعليه أن يقوم خلال عطلة نهاية الأسبوع بإعداد الدرس للحصة الأولى. وما إن يصل إلى المحطة حتى يلعن نفسه لقبول هذه الوظيفة. ولكنه جبان وليست لديه الشجاعة الكافية للعودة إلى المدرسة وإبلاغ الناظر بأنه غيَّر رأيه. وفي

مكتب بريد «بلسيز بارك» يعيد الكتاب إلى الناظر مع ورقة صغيرة يكتب عليها: «لظروف طارئة لم تكن في الحسبان أجد من المستحيل أن أقوم بتأدية واجبي على أكمل وجه، لذلك أرجو قبول صادق اعتذاري».

ثم قرأ إعلانا في صحيفة الجارديان وبناء عليه سافر بالقطار إلى محطة البحوث والتجارب الزراعية بمنطقة «روثا مستيد» الموجودة خارج لندن، التي سبق أن عمل فيها كل من «هالستيد» و«ماكنيتر»، مؤلفا كتاب «تصميم التجارب الإحصائية»، وهو أحد الكتب التي كانت مقررة عليه في الجامعة، وبعد وصوله قام المسؤولون في المحطة باصطحابه في جولة فيها للتعرف على الحدائق والصوبات الموجودة بها، ثم أجريت له مقابلة سارت على ما يرام. والوظيفة التي تقدم لها هي مسؤول تجارب مبتدئ، وعلم أن مسؤوليات هذه الوظيفة تتمثل في وضع شبكات لنباتات التجارب، وتسجيل أطوال في ظروف متغيرة، وتحليل البيانات في جهاز الكمبيوتر بالمحطة، وذلك تحت إشراف أحد كبار المسؤولين، وأما الأعمال الزراعية الفعلية فيقوم بها عمال البساتين تحت إشراف مهندسين زراعيين لذلك يتوقع ألا تتسخ يداه.

لم تمضِ سوى بضعة أيام حتى يصله خطاب من المحطة الزراعية تبلغه فيه تعيينه في الوظيفة التي تقدم لها، وذلك براتب قدره ستمائة جنيه سنويا، ولم يتمالك جون نفسه من الفرحة؛ أن يعمل في روثامستيد، يا لها من خطوة موفقة لن يصدقها أحد في جنوب أفريقيا!

لكن هناك عيبا واحدا ظهر من الخطاب إذ ورد في نهايته ما يلي: «يمكن تدبير مسكن لكم بالقرية أو في وحدة سكنية تابعة للمجلس». ويرد جون عليهم بقبول هذا العرض قائلا إنه يفضل أن يستمر في السكن في لندن وأن يسافر بالقطار يوميا إلى روثامستيد.

وردا على ذلك يتلقى مكالمة هاتفية من مكتب شؤون الموظفين بالمحطة مفاده أن السفر يوميا ليس مناسبا من الناحية العملية، فالوظيفة المعروضة عليه ليست وظيفة مكتبية مقيدة بساعات عمل ثابتة، إذ عليه أن يبدأ العمل في ساعة مبكرة في بعض الأيام، كما سيتأخر في العمل في أيام أخرى، وقد يعمل في عطلة نهاية الأسبوع، ومثله مثل باقي العاملين عليه أن يسكن قريبا من المحطة. وطلب منه إعادة النظر في موقفه وإبلاغهم بقراره النهائي في هذا الصدد.

وهكذا لم تكتمل فرحته، فما جدوى كل هذا السفر الطويل؟.. الذي تكبده من «كيب تاون» إلى لندن إذا كان مصيره الإقامة في منطقة سكنية تبعد أميالا كثيرة عن المدينة، مع ضرورة الاستيقاظ مع بزوغ فجر كل يوم لقياس ما طرأ على نبات الفاصوليا من نمو. وهو يريد أن يعمل في روثامستيد، وأن يستفيد من الرياضيات التي قضى سنوات عديدة في دراستها، كما يريد في الوقت نفسه أن يحضر جلسات الشعر، وأن يلتقي الكتاب والرسامين، وأن تكون له علاقات عاطفية. فكيف للناس في روثامستيد أن يتفهموا ذلك؟ بينما الرجال منهم يرتدون الجاكتات التويد (الصوف الخشن) ويدخنون الغليون والنساء تساقط شعرهن ويضعن

نظارات ثقيلة تشبه عيني البومة! وهل بإمكانه استخدام كلمات مثل الحب والشعر أمامهن.

ولكن كيف يرفض هذا العرض؟ إنه قاب قوسين أو أدنى من الحصول على وظيفة بمعنى الكلمة، وأين؟ ... في إنجلترا. كلمة واحدة يجب أن يقولها: نعم، ثم يكتب لوالدته يبشرها بنبأ لطالما انتظرته، وهو أن ابنها يتقاضى راتبا جيدا وفي وظيفة محترمة، على أن تبلغ هي بدورها عماته هاتفيا بأن جون يعمل عالما باحثا في إنجلترا، وهذا كفيل بأن يضع نهاية لسلوكهن تجاهه وتصيد أخطائه وتهكمهن عليه، وهل هناك عمل أكثر استقرارا من عمل العالم والباحث؟

فالاستقرار هو الشيء الذي كان يفتقده دائما، وهو موطن الضعف لديه.

أما من حيث البراعة والمهارة فلديه ما يكفي منهما (وإن كان أقل مما تظن أمه، بل مما كان هو نفسه يظن)، وأما من حيث القوة فلم تكن من صفاته يوما ما، والعمل في روثامستيد - وإن لم يكن سيوفر له القوة وعلى الفور - فعلى الأقل سيعطيه مسمى وظيفيا ومكتبا وسيوفر له الحماية، ففي بداية السلم الوظيفي سيكون مسؤول أبحاث مبتدئا ثم يرقى إلى وظيفة مسؤول أبحاث، ثم مسؤول أبحاث أول: ومن المؤكد أنه خلف هذه الحماية المحترمة سيتمكن في السر من مواصلة العمل لترجمة الخبرة التي سيكتسبها إلى فن، وهو العمل الذي ولد من أجله.

تلك هي مزايا العمل في المحطة الزراعية، وأما مساوئها فتتمثل في كونها خارج لندن، مدينة الحب والخيال.

ولذلك يكتب خطابا للمحطة يقول فيه إنه بعد روية وتفكير عميقين رأى من الأفضل الاعتذار عن قبول هذه الوظيفة.

والصحف مملوءة بالإعلانات عن طلب تعيين مبرمجي كمبيوتر ويفضل في المتقدم أن يكون حاصلا على شهادة جامعية في العلوم، وإن لم يكن هذا شرطا جوهريا، وسبق أن سمع جون عن برمجة الكمبيوتر، لكن لم تكن لديه فكرة واضحة عنها، ولم تقع عيناه على كمبيوتر من قبل إلا في الرسوم المتحركة حيث يظهر فيها الكمبيوتر على شكل صندوق يقذف لفّات من الورق. وهو متأكد من عدم وجود أي أجهزة كمبيوتر على الإطلاق في جنوب أفريقيا.

ويقوم «جون» بالرد على إعلان من شركة IBM، وهي أكبر وأعظم شركة في مجال الكمبيوتر، وطلب منه الحضور لإجراء مقابلة له، فيذهب للمقابلة مرتديا البدلة السوداء التي أحضرها معه من كيب تاون، والشخص الذي أجرى له المقابلة شاب في الثلاثينيات من عمره، يرتدي أيضا بدلة سوداء، وإن كانت أرقى وأكثر أناقة.

وأول سؤال وجه إليه كان هل ينوي ترك جنوب أفريقيا للأبد، فيرد بالإيجاب فسئل لماذا، فيقول: «لأن وطني يتجه نحو الثورة»، وساد الصمت بعد أن تلفظ بكلمة الثورة، فربما لا تكون الكلمة المناسبة في أروقة IBM، ويكون السؤال التالي: «ومتى تظن أن الثورة ستقع؟» فيرد قائلا دون تردد: «بعد خمس سنوات»، وهذا ما توقعه الجميع بعد أحداث شاربفيل التي كانت بداية النهاية لنظام حكم البيض، والذي يتزايد يأسه يوما بعد يوم.

وبعد المقابلة طلب منه إجراء اختبار ذكاء له، وهو دائما يحب اختبارات الذكاء ويحصل فيها على درجات عالية، وهو عموما ينجح في الاختبارات والامتحانات أكثر من نجاحه في الحياة الواقعية.

وبعد بضعة أيام يعين «جون» في وظيفة مبرمج تحت التمرين بشركة IBM، على أن يرقى إلى وظيفة مبرمج إذا اجتاز الدورة التدريبية بنجاح، وأدى فترة الاختبار على أكمل وجه، على أن يصبح يوما كبير مبرمجين، وسيكون أول تعيين له في مكتب معالجة البيانات بشارع «نيومان» المتفرع «من شارع أكسفورد» في قلب منطقة «ويست إند» وستكون ساعات عمله من التاسعة صباحا حتى الخامسة مساء وبداية مرتبه ستكون سبعمائة جنيه في السنة.

ويقبل «جون» شروط العرض دون تردد.

وفي اليوم نفسه يطالع لوحة الإعلانات في إحدى محطات مترو الأنفاق في لندن، حيث يجد إعلانا عن طلب تعيين ملاحظ عمال محطة تحت التدريب، وبراتب قدره سبعمائة جنيها سنويا، على أن يكون المتقدم حاصلا على شهادة اتمام الدراسة الثانوية على الأقل، وألا يقل عمره عن إحدى وعشرين سنة، ويتعجب: هل جميع الوظائف في انجلترا راتبها واحد؟! وإذا كان الأمر كذلك فما جدوى الحصول على شهادة جامعية؟!.

وفي الدورة التدريبية التي يحضرها «جون» هناك زميلان آخران - أحدهما فتاة جذابة من نيوزيلندا والآخر شاب من أبناء لندن ذو وجه تكسوه البقع، بالإضافة إلى حوالي عشرة من عملاء

IBM وبعض رجال الأعمال، وإذا روعي العدل والإنصاف فينبغي أن يكون «جون» أفضل واحد في المجموعة، وربما أيضا الفتاة السابقة الإشارة إليها. وهي أيضا حاصلة على شهادة جامعية في الرياضيات. كان جون في الواقع - يجد صعوبة في فهم المواد التي تدرس في الدورة ويخطئ في حل التمرينات التحريرية، وفي آخر الأسبوع الأول من الدورة عقد امتحان للمتدربين لم ينجح فيه «جون» إلا بصعوبة، ولم يكن المدرب راضيا عنه، وعبر له عن ذلك، ويكتشف «جون» أنه ليس من الضروري أن يكون الإنسان مهذبا في عالم المال والأعمال.

ولا يوجد في البرمجة ما يستعصي عليه فهمه، ولكن حتى رجال الأعمال من زملائه في الدورة يجدون صعوبة في ذلك، وكان «جون» من السذاجة بحيث ظن أن برمجة الكمبيوتر هي عبارة عن ترجمة المنطق الرمزي والنظريات الموضوعة إلى رموز رقمية، وأن طبيعة العمل ستتناول أرقاما عن الأرصدة والتدفقات النقدية بين العميل «أ» والعميل «ب». ولكن ما الأرصدة والتدفقات النقدية؟ وما العلاقة بينها وبين الرياضيات؟ ويمكن أن يكون أيضا موظفا كتابيا يفرز البطاقات في مجموعات، أو ملاحظ عمال محطة تحت التدريب.

وفي نهاية الأسبوع الثالث يقصد الامتحان التحريري النهائي وينجح فيه «جون» ولكن دون تفوق، ومن ثم ينقل إلى شارع نيومان، حيث يخصص له مكتب في إحدى الغرف مع تسعة مبرمجين آخرين وجميع أثاث الغرفة باهت، وفي درج المكتب يجد ورقا ومسطرة وأقلام رصاص ومبراة ودفتر مواعيد صغيرا ذا غلاف

بلاستيكي أسود، مكتوبا عليه بأحرف كبيرة فكّر، وعلى مكتب رئيسه المباشر الموجود في زاوية الغرفة توجد لافتة مكتوب عليها «فكر، فكر هذا هو شعار IBM. ويفهم «جون» من ذلك أن IBM ملتزمة بالتفكير المستمر دون انقطاع، وأن على العاملين بالشركة أن يفكروا في جميع الأوقات حتى يحققوا المثل الأعلى الذي ينشده مؤسس شركة IBM «توماس ج. واتسون»، والذين لا يفكرون ليس مكانهم في IBM التي تمثل أرقى شركة في مجال الأجهزة المكتبية. وفي مقر الشركة في «هوايت بلينز» بولاية نيويورك توجد مختبرات تجرى فيها أحدث أبحاث علوم الكمبيوتر أكثر من الأبحاث التي تجرى في جميع جامعات العالم مجتمعة. ويتقاضى العلماء في تلك المختبرات مرتبات أفضل من مرتبات أساتذة الجامعات، وتوفر لهم جميع الإمكانات، وكل المطلوب منهم مقابل ذلك هو فقط أن يفكروا.

ومواعيد العمل الرسمية في مكتب شارع «نيومان» هي من التاسعة صباحا إلى الخامسة مساء، إلا أنه سرعان ما يكتشف أن الموظفين الرجال الذين يغادرون المكاتب في الخامسة تماما ينظر إليهم نظرة تنم عن عدم الرضا، وأما الموظفات اللاتي لديهن عائلات فيمكنهن الانصراف في الخامسة تماما دون لوم أو عتاب، والرجال ينتظر منهم أن يعملوا حتى السادسة على الأقل - وإذا كانت هناك أعمال عاجلة فقد يطلب العمل منهم طوال الليل مع استراحة قصيرة للتوجه إلى بار لتناول بعض الطعام. أما هو فيكره البارات ويستمر في العمل ونادرا ما ينصرف قبل العاشرة مساء.

إنه في إنجلترا، وفي لندن، ولديه وظيفة، وظيفة بمعنى الكلمة - أفضل من مجرد التدريس - يتقاضى عنها أجرا. لقد هرب من جنوب أفريقيا، وكل شيء سيسير على ما يرام، ولقد حقق هدفه الأول، ومن المفروض أن يكون سعيدا، إلا أنه بعد بضعة أسابيع يجد نفسه تعيسا ،وتزداد تعاسته يوما بعد يوم. ويصاب بنوبات من الفزع يقاومها بشق الأنفس. وأما في المكتب فكل ما تقع عليه عيناه عبارة عن مسطحات معدنية. وتحت أنوار النيون المائلة.

يشعر كأن شيئا يخنق روحه، والمبنى الذي به المكتب عبارة عن بلوك ليست له معالم مميزة ومكون من خرسان وزجاج ويبدو أنه ينبعث منه شيء عديم اللون والرائحة ينفذ الى دمه كأنه مخدر، ويقسم أن IBM تقتله وتحوله إلى شخص متبلد الحس مسلوب الإرادة، لكنه لا يستسلم. لقد سبق أن فشل في مدرسة بارنيت هيل الثانوية الحديثة ثم في روثامستيد، ولا يود أن يفشل للمرة الثالثة في IBM، فالفشل سيجعله صورة من والده، فهو من خلال عمله في هذه الشركة القاسية يمر بامتحان للعالم الحقيقي، وعليه أن يستجمع كل قواه ويتحمل لكي ينجح.

# الفصل السادس

المهرب الوحيد من IBM هو الذهاب إلى السينما، وفي سينما «أفريمان» في منطقة «هاميستيد» يشاهد أفلاما من مختلف أنحاء العالم، ومخرجين لم يسمع عنهم من قبل، وقد عرضت أفلام «أنتونيوني» في موسم كامل حضره بأكمله، وأحد هذه الأفلام واسمه «ليكليس»، يتناول قصة امرأة تتجول في شوارع مدينة مهجورة، ضربتها حرارة الشمس، وتعاني الاضطراب والحزن، ويتساءل جون، ما سرّ حزنها؟ إذ إن وجهها لا يفصح عن شيء.

واسم هذه المرأة «مونيكا فيتي»، ولها ساقان جميلتان، ووجه جذاب، ونظرة تدل على أنها شاردة الذهن، مشغولة البال، ومونيكا تؤرقه، إذ يقع في حبها ويتخيل أنها تختاره من بين رجال العالم أجمعين، إذ تجد معه السلوى والراحة.

ولكن هل هو فعلا الحبيب الذي تبحث عنه مونيكا؟ وهل هو أفضل من الرجال الآخرين الذين يظهرون في أفلامها ويحاولون تخفيف أحزانها؟ والحزن الذي تعانيه مونيكا وغيرها من شخصيات أفلام «أنتونيوني» هو من نوع لا يعرفه، والواقع أنه ليس حزنا على الإطلاق، بل هو أعمق من ذلك، إنه الحصر النفسي، أي الشعور بالقلق والخوف، يرافقه عادة شعور بالاكتئاب، وهو يريد أن يتذوق طعم ذلك الشعور على الأقل ليعرف كنهه، ولكن مهما حاول فلن يجد في قلبه شيئا يمكن أن ينطبق عليه

هذا الوصف، ويبدو أن هذا الشعور ذو طابع أوروبي محض، ولم يجد طريقه إلى إنجلترا بعد، ناهيك عن المستعمرات البريطانية.

وقرأ «جون» مقالا في صحيفة «الأوبزرفر» يقول فيه كاتبه إن تناول السينما الأوروبية لهذا الشعور مبعثه الخوف من فناء العالم بالسلاح النووي، إلا أنه غير مقتنع بذلك، ولا يعتقد أن ما يجعل مونيكا تهيم على وجهها في شوارع «باليرمو» تحت أشعة الشمس المحرقة هو القنبلة الهيدروجينية، فالمسألة أكثر تعقيدا من ذلك، كما يتغلغل هذا الشعور بالخوف والقلق في أعماق شخصيات أفلام «بيرجمان»، وهو السبب فيما يعانونه من وحدة وانعزال لا شفاء منهما، إلا أن صحيفة «الأوبزرفر» تقول إنه يجب عدم أخذ ذلك مأخذ الجد، لأنه عبارة عن ادعاء وتظاهر ليسا غريبين عن ليالي أقصى شمال أوروبا الطويلة، وما فيها من إفراط في الشراب.

وحتى الصحف التي يفترض أنها ليبرالية كـ «الجارديان» و«الأوبزرفر»، فهي معادية لحياة العقل والفكر، كما بدأ جون يكتشف ذلك، فعندما تكتب عن موضوع مهم وجاد سرعان ما تعالجه بأسلوب تهكمي، والبرنامج الثالث بالإذاعة هو المنبر الصغير الوحيد الذي يتناول الفن الجديد، كالشعر الأمريكي والموسيقى الإلكترونية والفن التعبيري التجريدي، تناولا جادا، وتتجه إنجلترا الحديثة إلى أن تكون بصورة مزعجة بلدا لا يهتم بالثقافة الرفيعة، ولا يختلف كثيرا عن إنجلترا التي رسمها، «و. هـ. هنلي» ومارشات للاحتفالات التي تظهر فخامتها وجلالها، والتي هاجمها باوند بشدة في عام ١٩١٢. ويتساءل جون: ما

الذي يفعله في إنجلترا إذن؟ هل كان حضوره إلى إنجلترا خطأ كبيرا؟ وهل لا تزال هناك فرصة للانتقال إلى مدينة أخرى؟ وهل باريس مدينة الفن والفنانين، مناسبة أكثر من لندن، إذا أمكنه بطريقة ما إتقان اللغة الفرنسية؟ وماذا عن «ستوكهولم»، التي ينتمي إليها بروحه؟ ولكن ماذا عن اللغة السويدية، وكيف سيجد لقمة العيش فيها؟

وفي مكاتب IBM يجب أن يحتفظ جون بخيالاته عن مونيكا، وعن تأثره بباقي الفنانين لنفسه، ولأسباب لم يفهمها يجد أن أحد زملائه المبرمجين واسمه «بيل بريجز» يميل إليه، ويريد أن يتخذه صديقا، وبيل قصير القامة، ويكسو وجهه حب الشباب، وله صديقة اسمها «سينثيا» ينوي أن يتزوجها، ويتمنى أن يتمكن قريبا من دفع مقدم ثمن شراء منزل في «ويمبلدون»، ويتحدث بلكنة لندنية واضحة، ويدخر أمواله في حساب بإحدى جمعيات بناء المساكن، بينما يتحدث باقي المبرمجين بلكنة طلبة مدارس المتفوقين، التي ليست لها علامات مميزة، ويبدأون عملهم اليومي بتصفح صحيفة «التلجراف»، لمعرفة أسعار الأسهم في الصفحات التي تتناول الشؤون المالية.

وعلى رغم أن «بيل بريجز» أصوله الاجتماعية متواضعة، فليس هناك ما يمنع من أن ينجح في شركة IBM، فهي شركة أمريكية لا تعترف بالتقسيم الطبقي في بريطانيا، وسر قوتها يكمن في أنه باستطاعة أي شخص، أيا كان مستواه الاجتماعي، أن يصل فيها إلى القمة، لأن كل ما يهمها هو الولاء والإخلاص والعمل بكل جد واجتهاد وتركيز، ومما لا شك فيه أن «بيل» مخلص في عمله